كلمة المؤلف

إن الدين يتألف من جزأين رئيسيين :أحدهما جانبه النفسي وثانيهما جانبه الخارجي. واقصد بالجانب النفسي ما نسميه بالخشوع والخضوع والتقوى والعلاقة بالله. اما الجانب الخارجي من الدين فالمراد منه الأعمال المتعلقة بالأعضاء والجوارح التي يؤديها المؤمن في العالم الخارجي.

وقد اصطلح العلماء لبيان هذين الجانبين بأن قالوا :إن الأعمال الإسلامية قسمان:أعمال روحية وأخرى بدنية . إذن .. ما هي العلاقة بين هذين الجانبين أو التوأمين من الأعمال الإسلامية ؟. إنه سؤال جد هام وحيوي والحياة الإسلامية الصحيحة تتوقف على معرفة كلا الجانبين معرفة دقيقة. وبسبب الحقب الطويلة التي مرت بالمسلمين بين مد وجزر وحكم واستبداد قد وقعنا في إفراط وتفريط في نظرتنا تجاه الدين. فبعض الناس يعطون الأهمية للجانب الروحي من الإسلام بينما البعض الآخر يميل إلى جانبه الخارجي. إن الميل إلى وجهة النظر الأولى يذهب بأصحابه إلى تصور ديني حيت لا يميز الإسلام شيء عن الأديان الروحية الأخرى. وعلى النقيض من ذلك تطرف البعض الآخر فأعدوا في تفسيرهم للدين خريطة سياسية حتى يبدو للإنسان أن الإسلام نظام سياسي مثل سائر النظم السياسية الأخرى .

وفي هذه الحالة من الإفراط والتفريط في تصور الجانبين – الروحي والسياسي – من الإسلام يجب علينا أن نبحث عن التفسير الصحيح والمتزن للدين حتى لا نقع في محضور هو تحريف الدين وحتى يحتفظ الإسلام بجوهره وأصالته . وهذا الكتاب محاولة متواضعة للإسهام نحو هذه الغاية .

والله هو الموفق.

وحيد الدين خان.

دلهي في 9 أبريل 1971 .

الفصل الأول

ما هو التفسير

"إن قضية العيش من أهم القضايا !.. ويجب أن يكون في مستطاع كل فرد من أفراد المجتمع أن يحصل على لقمة عيشه بمنتهى الحرية، ويجب ألا يسمح لأحد باستغلال الآخرين مالياً أو اقتصادياً! " إنها قضايا ليس بوسع أحد إنكارها، ولكنها حين تتحول إلى مذهب الماركسية، يجد الإنسان نفسه مضطراً لمحاربته.

وما السبب وراء هذه المعارضة؟ لا شئ سوى حقيقة واحدة هي أن العيش والاقتصاد حقيقة بسيطة غير معقدة، الإ أنها تتحول في هيكل الفكر الماركسي إلى فلسفة متكاملة، فيصبح الاقتصاد تلقائياً القضية الأساسية للحياة، بدلاً من أن يبقى في مكانته الأصلية كقضية عادية من قضايا كثيرة تتعلق بالحياة وتؤثر فيها. ولكن عندما يصبح الاقتصاد قضية القضايا، يبدأ الماركسيون في ضوئه شرح جميع وقائع الحياة والبشرية، وفى ضوئه أيضاً تتحدد أهمية مختلف الجماعات والأفراد والقضايا.. ويصبح الاقتصاد هو محور كل الصراعات والجهود، فيتلون كل جهد فكري وعملي بلون الفكر الجديد. وليس معنى هذا أن جوانب الحياة الأخرى تنعدم بعد قبول التصور الماركسي، بل هي جميعاً تصبح توابع عادية للقضية الأساسية- الاقتصاد- وتفقد معنويتها خارج إطار ذلك الأساس.

إن الأفكار الاشتراكية لم تظهر في أوروبا، في بداية الأمر, الإ بصورة وقتية نتيجة للظروف الاقتصادية التي نتجت عن الثورة الصناعية. فقد أساء استخدام التكنولوجيا في الصناعة إلى حياة العامة، وخصوصاً طبقة العمال منهم، و قد أحزنت هذه التطورات عقولاً كثيرة فعكفت على التفكير في الوسائل والإصلاحات التي تجعل اللارأسماليين الفقراء أيضاً يشتركون في ثمرات الثورة الصناعية ،فيكون نصيبهم مماثلاً لنصيب الرأسماليين. فالاشتراكية في فجرها كانت قيمة اقتصادية فقط .. ومهما كانت قيمة الفكر فإنه لا يقوى، ولا يستقطب الأنصار، الإ إذا أدخل إليه عنصر المبالغة، وحينئذ فقد يؤثر ذلك الفكر في عامة الناس. ومن هنا دخل العنصر النفسي الدعائي والثوري إلى أحاديث المفكرين الأوائل فأضفى على دعوتهم الإصلاحية عنصر الإثارة والمبالغة ومضى بهم الأمر حتى أقاموا فكراً سياسياً متكاملاً، أساسه ومحوره الاقتصاد. وقد أصبح كل شئ في الأرض والإنسان تابعاً للاقتصاد. وماركس هو الحد الفاصل بين الاشتراكية النظرية " الخيالية " لأسلافه وبين الاشتراكية العلمية التي نزل بها هو.

ولم يكن هناك ما يضير من الاشتراكية ما دامت تبغي الإصلاحات الاقتصادية وتطالب برفع الظلم عن كاهل العمال والفقراء والبائسين، ولكنها أضحت فكراً خاطئاً حين لبست ثوب الأفكار الماركسية "العلمية".

وهذا الأمر ذاته يمكن أن يحدث فيما يتعلق بالدين. فقد تكون

قيمة معينة من قيم الدين تتعرض للإهمال في عصر ما، ويثير ذلك عزيمة في نفس بعض المصلحين فيسعى لإحياء تلك القيمة المهدورة. إن ضرورة الإثارة ومصلحة الدعوة كلتيهما تقتضي المبالغة في تبيان أهمية تلك القيمة الضائعة من قيم الدين.، ومن الطبيعي أن المصلح، الذي يريد إحياء تلك القيمة، لا يستخدم في أحاديثه مصطلحات الفقه والمنطق، ولكنه يلجأ إلى لغة الخطابة والبيان والدعوة. إنه يخاطب المشاعر ويتحدث إلى القلب . ومن الواضح أن الكلمات التي تخرج لمقتضيات الدعوة لا تكون كلمات موزونة، منطقية، فقهية، بل هي عبارات أريد بها هّز المشاعر باستغلال الكلمات المثيرة..

لقد حدّث مالك بن أنس أن برداً - مولى ابن المسيب - قال لسعيد بن المسيب : " ما رأيت احسن ما يصنع هؤلاء؟ فال سعيد: وما يصنعون؟ قال: يصلى أحدهم الظهر ثم لا يزال صافاً رجليه يصلى حتى العصر. فقال سعيد: ويحك يا برد ! أما والله ما هي بالعبادة ! تدري ما العبادة؟ إنما العبادة التفكر في أمر الله والكف عن محارم الله ".[1]

ومن البديهي أن عالماً عظيماً وعبداً تقياً كسعيد بن المسيب لم يكن يجهل أهمية الصلاة والصوم والذكر وتلاوة القرآن . إن مقاله هذا، موجه في حقيقة الأمر لغرض الدعوة، ووراءه خلفية معينة،

[1] الطبقات الكبرى: لابن سعد، دار صادر- دار بيروت 1957، المجلد الخامس، ص 135.

وهو ليس بمقال فقهي أو منطقي . إن الفقيه عندما يتحدث عن شئ ما يتناوله كقضية شرعية، ويوضح الأحكام في صورتها الأصلية. ولكن " الداعي " لا يتوخى الشرح العلمي والقانوني للقضية، بل كل همه هو الإصلاح وحسب، ولذلك يبحث الداعي عن القيم التي تتعرض للإهمال في الحياة الإسلامية في عصره، ثم يركز كل اهتمامه على تلك القيم، دون غيرها، وهو لذلك الأمر نفسه يقوم بالمعالجة المفيدة للقضية، دون المعالجة الفقهية والقانونية، فيركز حديثه على ذلك الجزء، أو على تلك الأجزاء، من القضية التي هي في حاجة وقتية للمعالجة والاهتمام من وجهة نظره. والداعي يميل إلى حذف الأجزاء الأخرى من القضية أو إلى عدم التركيز عليها، حينما يرى أنها ليست في حاجة إلى الاهتمام الفوري بها.

وأسلوب الداعي هذا هو عين أسلوب الإسلام. ونحن نجد أمثلة له في سنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وعند جميع دعاة الإسلام من بعده. فالحقيقة أن الإسلام لا يمكن نشره، ولا يمكن إصلاح أحوال المسلمين دون الاعتماد على هذا الأسلوب من الدعوة.

والأمر إلى هذا الحد صحيح، بل هو مطلوب ومرغوب فيه . ولكن بعض الدعاة، أو مريديهم من بعدهم، لا يفتأون أن يقعوا في محظور الاعتقاد بأن الكلمات التي خرجت من ألسنتهم لا تتمتع بقيمة الدعوة فحسب، بل هي تفسير مطلق للدين. ومن هنا تبدأ أخطاؤهم. وعلى سبيل المثال، يعرض أحد المؤلفين على أحد

الدعاة فكرة نشر كتب إسلامية ليخدم بها دينه، فيرد عليه الداعي : " الكتب لا تنفع في شئ!.. إنك ستؤلف كتبك جالساً والناس سوف يقرئونها مستلقين على سررهم ! ".

إن هذه الجملة تستند إلى خلفية معينة للمؤلفين والقراء . ولكن لو اعتقد أتباع هذا الداعي أن مقاله إنما هو حقيقة مطلقة في عمل الدعوة، ومن ثم ينبذون نهائياً بند التأليف والنشر من فهرس نشاطهم الدعائي، فإن عملهم هذا سيعني أنهم قد اتخذوا حقيقة وقتية- تمتعت في وقت ما بصدق جزئي- فأحالوها إلى حقيقة دائمة مطلقة. والمفهوم الذي كان صائباً في خلفية معينة يصبح في شكله النهائي مفهوماً خاطئاً يعود بالضرر على حركة الدعوة.

وهذا الخطأ يتخطى أحياناً هذه الحدود، فيتقمص صورة عامة بدلاً من كونه خطأ محلياً في مجتمع محدود. ففي بعض الأحايين يتملك فكر ما من نفس الداعي فلا يلبث أن يزعم بأن الجزء الذي أراد التركيز عليه إنما هو الحقيقة الكلية بعينها في هيكل الدين. ومن هنا ينطلق يشرح ويفسّر الدين كله في ضؤ فكره الوقتي. وهو لا يكتفي عند هذا الحد بالتركيز على ذلك الجزء فحسب، بل يجعله على رأس القضية، ويبدأ يلاحظ كل الأخطاء والحسنات من خلال منظاره الجديد. وعند هذه النقطة يصل الخبر إلى آخر مداه. والشيء الذي كان جزءاً من الدين وربما كان جزءاً إضافياً منه، يصبح ذلك الشيء أو الجزء هو كل الدين، بل أصل الدين في الهيكل الفكري الذي شيده ذلك الداعي، وبعبارة أخرى فإن قضية المعاش تتحول

إلى الماركسية. ونحن نعرف أن القضية الماركسية خاطئة كلياً في تفسيرها, بالرغم من أنها تتناول قيمة هامة من قيم الحياة .

ولنفهم هذا في ضوء مثال بسيط ... لنتصور أن رجلاً ينظر بإمعان إلى شئ أصفر. ثم لنتصور ذلك الرجل مرة أخرى، وهو يلبس نظارة ذات زجاج أصفر أو أنه قد أصيب باليرقان (الصفراء). فسوف نجد أن الناظر في حالته الأولى ربما لا يرى شيئاً لبعض الوقت سوى الصفرة بسبب تركيزه في المشاهدة.

ولكن حالته هذه ستزول بمجرد انتهاء تركيزه على الشيء الأصفر أو بإدارته عينيه إلى مكان أخر.. فانه حينذاك سيرى الأشياء في ألوانها الحقيقية. ولكن الرجل في الصورة الثانية لن يرى شيئاً سوى الصفرة، لأنه يلبس نظارة صفراء أو لأنه مصاب باليرقان. فهو في هذه الحالة سيشاهد كل الأشياء، ولكن بلون واحد، أصفر، ولن يرى لوناً آخر سواه..!

ما الفرق بين التركيز على شئ من وجهة نظر الدعوة، وبين تحويل ذلك " الشيء- الجزء " إلى تفسير كامل؟ .. لنفهم هذه القضية من مثال آخر ... لنفترض أن رجلا يقول: " لكي يكون المسلم مسلماً، يجب أن يخلق في نفسه روح الجندية! ". إن هذه الجملة تحمل الكثير من المبالغة، حيث أنه من المستحيل على كل مسلم أن يصبح جندياً، فليس كل المسلمين رجالاً وشباناً، بل بينهم الشيوخ والنساء والأطفال والأقوياء والضعفاء والمرضى والأصحاء. ولكننا سنعتبر هذا الكلام تركيزاً دعائياً، يريد صاحبه إحياء

جانب من جوا نب الحياة الإسلامية وهو الجهاد، الذي يتعرض الآن للإهمال. فهذا المقال لن يجرح الفكر الإسلامي لأنه لا يستحدث فيه عنصراً جديداً، رغم ما فيه من خطأ في المنطق ومن سوء في التعبير وفى الصياغة. ولكن الداعي لو بدأ، على العكس من هذا، يلقي خطاباً على النحو التالي:

(إن الروح الحقيقية للإسلام هي العسكرية. و لم تنزل الكتب السماوية والأديان الإ لتربية الروح العسكرية في المؤمنين. إن الهدف النهائي لجميع أنشطة الإسلام هو تدريب المؤمنين عسكرياً. وأن الأذان إنما هو البوق العسكري، وهروع المسلمين إلى المساجد عقب الأذان إنما هو كتجمع الجند في الميدان عند سماع البوق، والحج هو مسيرة جنود الإسلام في العالم أمام الله. إن الأمة الإسلامية لهي جيش إلهي، والإسلام إنما هو النظام العسكري الذي أنزل على هذا الجيش لتنفيذه بالقوة , كما جاء في القرآن الكريم: " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر").[1] إنه لو شرع أحد الناس في إلقاء خطاب من هذا النوع فسوف نقول عنه أنه يقوم بتفسير عسكري للدين.

إن الفقرة الأولى- عن أهمية دور الجندية في الحياة الإسلامية - تدل على عنصر التركيز الدعائي على قضية تتعرض للإهمال أما

---

[1] المترجم: هذه الخطبة هي على غرار خطب المرحوم د. عنايت الله المشرقي وهو من أعظم علماء الهند في الطبيعة والرياضيات ولكنه ترك العلم وخاض غمار السياسة فاسس حزب خاكسار "حزب الخدام الإلهيين" المؤمن بوجوب إقامة الشعائر الإسلامية بالقوة .. حلته الحكومة الباكستانية عقب قيام باكستان ... الأية .. (آل عمران:110).

الخطاب الآنف الذكر، فهو يتعدى حدود " الدعوة "، فيقيم صرح تفسير جديد للدين. إن الفقرة الأولى كانت تبالغ في بيان أهمية الجندية، بينما هذا الخطاب يدرس الدين كله في ضؤ الجندية، ويحدد لكل جزء من أجزاء الدين أهميته حسب علاقته بالجندية.

فالواضح أن الفرق بين التأكيد الدعائي، وبين تفسير الدين هو أن الداعي في المثال الأول يحاول إبراز عنصر ما من عناصر الدين، أما في المثال الثاني فهو يبالغ في تأكيد العنصر حتى يجعله أساس هيكل الدين. فقد كان يؤكد على ضرورة الاهتمام بعنصر ما- كوحدة من وحدات الدين- عندما كان يدعو لها، أما حين جلس على مقعد المفسر فقد أحال ذلك العنصر نفسه إلى الوحدة الأساسية (في المجموعة) وهي التي يريد في ضوئها تعيين قيمة الوحدات الأخرى في المجموعة . أنه لا تهدر أهمية العناصر الأخرى بتركيز الأضواء على عنصر واحد، في الشكل الأول، ولكن الدين كله يفقد معناه (في الشكل الثاني) بدون ذلك العنصر الذي جعله المفسر جامعاً بين كل عناصر المجموعة. ويمكننا أن نشبه ذلك الجزء أو العنصر المؤكد عليه في الشكل الأول، بأنه صفحة من الكتاب، ولكن ذلك العنصر بعينه يصبح العنصر الجامع بين كل أجزاء الكتاب في الشكل الثاني.

وباختصار، فإن التأكيد الدعائي هو تأكيد وقتي، على جزء ما من أجزاء الدين، اقتضته ظروف عملية. وفى الشكل الثاني يذهب الرجل بذلك العنصر أو الجزء إلى حد إحالته إلى فلسفة وفكر.

إن التركيز على عنصر ما أمر لابد منه , لأنه لا يمكن خلق الحركة والنشاط الثوري بين الجماهير بدون استخدام ذلك الأسلوب. ولكن حين تتقمص قضية المعاش الهامة صورة الماركسية، بسبب ذلك التأكيد، وحين يخرج حزب الخدام الإلهيين من بطن الروح العسكرية.. فإن الأمر لا يكون أكثر من تفسير خاطئ لواقع حقيقي. وعلى هذا الأساس نفسه نقرر بطلان ذلك التفسير.

التفسير الخاطئ يقود إلى العمل الخاطئ

إن بعض الناس يقولون : إن الإسلام ليس مجرد دين بل هو سياسة أيضاً،،وأنه لا يكفي إحياء الجانب الديني من الإسلام بل يجب الكفاح لإحياء الجانب السياسي منه في الوقت نفسه. وهؤلاء حين يرون جماعة من الناس لا يقومون بهذين العملين في وقت واحد، يصدرون من فورهم فتاوى يدعون فيها أن هذه الجماعة لا تكافح لأجل الإسلام الكامل.

ولكن هذا خطأ. فالحقيقة أنه ليس بيننا من يفصل السياسة عن الإسلام. ولكن الفرق الذي يميز الأولين من الآخرين هو أن الأولين يستمدون الكفاح السياسي من العقيدة نفسها. بينما يرى الآخرون[1] أن السياسة تنبع من الظروف والأحوال التي يوجد فيها المسلمون، في وقت من الأوقات.

---

[1]والمؤلف مع هذا الرأي كما سياتي - المترجم

ماذا يكون برنامجنا السياسي في بلد ما ؟.

إن المجموعة الأولى تقول: إن حكم إقامة النظام السياسي الإسلامي مماثل لحكم إقامة الصلاة. وبكلمة أخرى، يجب علينا وفى كل الظروف أن نبدأ الكفاح السياسي لإقامة الدولة الإلهية، حيث أن هذا هو ما يقتضيه الإسلام، ولأن الارتضاء بشيء أقل من الحكومة الإلهية - كما يقولون - لا يعدو أن يكون مساومة رخيصة مع نظام الجاهلية، وهذه لا تجوز. فكما أننا نومن بأنه لا خالق ولا معين الإ الله وهو ما نعتقده في كل الظروف، فكذلك الكفاح السياسي أيضاً- جزء أساسي من إيماننا، ولذلك نحن مكلفون في كل الظروف بالإيمان بالله خالقاً وبالإيمان بوجوب بدء الكفاح السياسي لإعلاء كلمة الإسلام.. وأنه يجب أن نقبلهما في كل الأحوال، وأن نضعهما نصب أعيننا على قدم المساواة.

ولكن المجموعة الثانية، على العكس من هذا، تؤمن بأن البرنامج السياسي للمسلمين، ليس قضية العقيدة في حقيقته بل هو رهن الظروف والأحوال . صحيح أن الإسلام حين أصدر أحكامه حول الأشياء الأخرى تناول السياسة والنظام أيضاً . ولكن لا يكفي لتعيين أسلوب العمل السياسي الإسلامي أن نشير إلى تلك الأحكام، بل يجب دراسة الظروف والأحوال المحيطة بجماعة المسلمين في زمن ما، وفى مجتمع ما. فالظروف وحدها سوف تقرر كيف نقوم بواجبنا في وقت معين لتنفيذ الأحكام السياسية الإسلامية.

إن مسألة التفسير هذه ليست قضية نظرية وفكرية فحسب . بل

هي قضية عملية غاية في الخطورة. فالعمل نتاج التفكير الإنساني، والإنسان يعمل ويركز جهوده بنفس الأسلوب الذي يفكر به. فإذا كان أحد الناس مولعاً بالتفسير الاقتصادي للحياة، فإنه سوف يركز جميع طاقاته العملية لتغيير النظام الاقتصادي الفاسد. أما إذا كان أحدهم يعتبر فساد الحياة وصلاحها قضية روحية فإنه سوف يركز كل نشاطه على تربية روحه وتزكيتها.

إن دراسة معظم الحركات السياسية في العالم الإسلامي تدلنا على أن فشل تلك الحركات في التحليل النهائي يكمن في خطأ مناهج فكرها المعوج . لقد نظرت هذه الحركات إلى الدين على أنه نظام سياسي. وكان من جراء هذه العقلية السياسية أن هذه الحركات ركزت كل جهودها على تغيبر النظم السياسية في بلدانها. واستعصى على رجال هذه الحركات- بسبب عقلياتهم السياسية الخاصة- أن ينتبهوا إلى أن هناك أعمالاً عاجلة يجب عليهم العناية بها والانصراف إليها قبل السعي إلى تغيير النظام. وهؤلاء لم يشعروا بالطمأنينة القلبية الإ حين وجدوا أنفسهم مشغولين على جبهة الثورة السياسية، ذلك أن منهجهم الفكري لم يكن يسمح بشيء أقل من ذلك.

وكانت نتيجة هذه المغالاة ، في اعطاء العنصر السياسي الأهمية القصوى، أن نسي هؤلاء الرجال أن السياسة ليست لعبة من طرف واحد، بل هي لعبة مزدوجة، ويجب إخضاع أقوى الأطراف في المجتمع للفوز في هذه اللعبة. ولهذا يجب ألا تنزل جماعة ما

إلى الساحة الإ حين تثق في أنها أصبحت قادرة على معاملة الأطراف القوية.

أما النزول ِإلى ساحة السياسة قبل هذه المرحلة فهو مرادف للانتحار، لا غير. إن السياسة نهر لا يمكنك عبوره بقفزتين أو ثلاث قفزات، والذي يقفز في النهر بدون تدريب كاف في السباحة إنما يسلم نفسه إلى قاع النهر. وهذا ما حدث مع تلك الأحزاب والحركات السياسية العزيزة علينا. لقد رأى رجالها أن الاكتفاء بشيء دون السياسة بمثابة خيانة لرسالتهم، ولذلك قفزوا إلى نهر السياسة بدون تدريب كاف وبدون مراس ضروري.. فحقت عليهم سنّة الطبيعة، وأصبحوا ضحايا زوابع السياسة.

لماذا هذه الدراسة ؟

هناك أسلوبان لدراسة الدين. الأسلوب الأول هو البحث عن التعاليم والأحكام الإسلامية وعن فضائلها. والأسلوب الثاني هو التفكير في أسرار التعاليم الإسلامية وحكمتها.

إن الوعظ والفقه يمثلان الأسلوب الأول. أما الأسلوب الثاني في دراسة الدين فلم يعد فناً متكاملاً بعد . الإ أن مفكري الإسلام منذ أقدم العصور، قد فكروا في أسرار الأحكام الإسلامية وحاولوا اكتشاف حكمتها، وأضافوا جديداً، في كل الأجيال. ومن أهم الذين تنبهوا إلى هذا المنهج عز الدين بن عبد السلام، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، والإمام الغزالي، والشاه ولى الله الدهلوي صاحب

كتاب (حجة الله البالغة).

إن دراسة أسرار الشريعة، هي الأخرى، تنقسم إلى نوعين :

النوع الأول هو دراسة أسرار مختلف الأحكام الإسلامية , كل على حدة , والنوع الثاني من هذه الدراسة هو أن نحاول اكتشاف الحكمة الجامعة في الدين , ككل جامع .

إن النوع الأول من الدراسة يستهدف البحث عن أسرار الشريعة في في مختلف أجزاء الدين واحداً واحداً ، بينما النوع الثاني يصبو إلى البحث عن تفسير عام للدين حتى يتبوأ كل جزء من الدين مكانه في المجموعة .

إن جهود أسلافنا الباحثين عن حكمة الدين تتعلق أساساً بالنوع الأول من الدراسة، أي بالبحث عن أسرار الشريعة في مختلف الأحكام، كل على حدة، فهم يتناولون شعائر الإسلام واحدة واحدة، ويبينون حكمتها وسرّ تشريعها.

أما فيما يتعلق بالنوع الثاني - أي البحث عن أسرار الشريعة ككل جامع فإن المؤلف يجهل أي جهد مستقل في الموضوع .

ومن هنا، كان هذا الجهد جد خطير ودقيق، حيث لا توجد أمامنا أية محاولة نموذجية رائدة لهدايتنا نحو أسلوب إجراء هذه الدراسة , بالرغم من وجود مواد متناثرة في الأدب الإسلامي حول الموضوع.

إن المؤلف يرى أن الوجود الإنساني نفسه- الذي نزل من أجله الدين- لهو أكبر مثال نموذجي لفهم الرباط الجامع بين مختلف عناصر الدين. إن الإنسان في حقيقته النهائية لا شئ سوى وجود روحاني

أو نفسي. فالإنسان لا شئ سوى ذلك في التحليل النهائي لوجوده. ولكن الروح لا تظهر في عالم الوجود المادي مطلقة, بل هي تلبس ثوب جسد كامل حتى تظهر في عالم المادة . فحقيقة الإنسان هي "الروح" ، و"الجسد" هو مظهر الروح الخارجي.

ولكن الحدود الإضافية للإنسان لا تنتهي هنا. إن هناك شيئاً آخر يعتبر أساساً للوجود الإنساني، وهو ما نسميه بالقوة والصحة.

فكما أن الإنسان - وبلغة علم النفس: " الأنا " – لا يمكن أن يظهر في الوجود المادي بدون جسد، فكذلك لا يستطيع إنسان ما- أو " الأنا "- أن يحتفظ بجسده ووجوده ما لم يحتفظ بالصحة والقوة. أن الجسد المريض أو العاجز لا يستطيع أن يسخر الإمكانات التي قدرت للإنسان في هذا العالم.

ودين الله أيضاً جامع لعنصرين من هذا النوع، فإذا كان الوجود الإنساني- الذي أنزل لأجله الدين- يجمع بين عنصرين فالدين أيضاً يتكون من " روح " و " جسد "، ولكن الجسد الذي لابد منه للوجود الإنساني، ليس بديلاً للأصل المطلوب, فالمطلوب الحقيقي هو الروح، والجسد لم يدخل إلى المجموعة الثنائية الإ كجزء إضافي وليس كجزء أصيل.

الفصل الثاني

الإسلام ومقتضياته

كثيراً ما يهلك المرء زعمه بأنه على علم بكل الحقيقة. لقد كان أرسطو يزعم أن عدد أسنان المرأة أقل عدداً من أسنان الرجل. وهو لم يقع في هذا الخطأ إلا لأنه كان يعتقد أنه يعرف الحقيقة!.. إذ أنه لو كان قد طلب يوماً من زوجته أن تفتح فاها وعدّ أسنانها لعرف أن لا علاقة لمزعومته بالحقيقة البتة!!.. ولكن أرسطو لم يشعر بضرورة هذه المشاهدة، فقد كان جازماً بأنه على علم بالحقيقة.

عليك ألا تبتلي نفسك بخطيئة الإعتقاد بأن إيمانك بصحة شئ ما هو دليل في حد ذاته على صحة ما تعتقده. إن الإنسان أحياناً يسجن نفسه داخل دائرة فكرية، فيظن أن ما يراه هو كل ما في الكون من الحقائق. إلا أنه إذا تجاسر يوماً، فخرج عن دائرته الإنعزالية، لتأكد أن الحقيقة أوسع بكثير مما كان يظنه وهو حبيس دائرته الإفتراضية.

إن هذا العالم عالم اختبار ... وعلاقتنا به معقدة إلى أقصى درجات التعقيد، حتى لقد أصبح من أصعب الأمور أن نقيم رأياً يكون أقرب الآراء إلى الحقيقة.

أن الشيء الذي يطلق عليه الإنسان أنه " فكرة " قد نسجته عوامل لا حد لها، ولا سبيل إلى رؤيتها للآخرين، وأحياناً للإنسان صاحب الفكر نفسه. فهناك جوانب كثيرة: كيف نظرت إلى واقع ما ؟

... في أي وقت نظرت إليه؟.. من أية زاوية ألقيت نظرتك ؟.. وبأي العواطف ؟.. وماذا كانت معلوماتك المسبقة عن الموضوع الذي نظرت إليه؟.. إن هناك جوانب كثيرة تؤثر على حكمك على شئ ما وعلى رأيك حوله. كثيراً ما يخيل إلى المرء أنه قد وصل إلى الحقيقة ، ثم يكتشف أنه كان لا يزال في متاهات الضلال!

لقد حدث قبل أكثر من نصف قرن أن مواطناً روسياً اشترى شيئاً من أحد المحلات التجارية. وحين وصل إلى بيته لفتت نظره الورقة التي كانت بضاعته ملفوفة بها، فإذا بها ورقة من الجريدة السرية التي كان يصدرها لينين. لقد أثرت أفكار الجريدة في المواطن، فبدأ يبحث عن الكتب الاشتراكية، حتى أنخرط في الجيش الثوري الذي قاد الانقلاب الشيوعي.

وهناك كثيرون- مثل هذا المواطن الروسي- من الذين يقرءون لكتّاب ومفكرين فيتأثروا بهم ويقبلون على أفكارهم معتقدين أنهم قد توصلوا إلى الحقيقة النهائية. هذا، رغم أننا نعرف أن هذا المفكر[1] وأتباعه كانوا كلهم في ضلال، وكانت سكينتهم القلبية محض خديعة انخدعوا بها وخدعوا الآخرين أيضاً..

وهذه هي حال الإسلام. فانشراح صدرنا لتفسير من تفسيرات الإسلام لا يكفي في حد ذاته سبباً لنجزم بأننا قد وصلنا إلى التفسير الصحيح للإسلام في حقيقة الأمر. وإذا كانت الأفكار اللادينية والمعتقدات السطحية يمكنها أن تؤثر في الناس، فما بال

---

[1] يقصد :لينين -المترجم

الأفكار التي تعرض بالمصطلحات الدينية مدعمة بالآيات والأحاديث النبوية الشريفة!.. والحقيقة أن لدينا في هذا العالم كل نوعيات البشر. ومهما كانت الأفكار أو النظرية التي تدعو لها فإنك ستجد دائماً بعض من يؤيدونك.

أن عقولنا ليست واضحة بالرغم من أن دين الله واضح تمام الوضوح. فيمكن تقديم مئات من التفسيرات لدين الله، وكل تفسير منها يكفي لضلال مئات الألوف من البشر. إن كثيرين سيفترقون وآخرون سيجتمعون على أساس كل تفسير من هذه التفسيرات.

أنك تعتقد عن رجل ما أنه على ضلال بيّن! الإ أنك لو تحدثت إليه لاكتشفت أنه لم يقم فكره بدون أساس.. بل لديه دلائل " قطعية " حول ما يدين به. إنه يجزم بكل ثقة أن فكره هو أكثر الأفكار تطابقاً مع " الحقيقة ".

لقد فكرت كثيراً في هذه المعضلة.. فكيف يحدث هذا التنافر الشديد بين " حقيقة " وأخرى؟ إن الحقيقة لا يمكن أن تكون سوى حقيقة واحدة. فلم إذن يفسرونها ألف تفسير وتفسير؟.

وردي على هذا: أن الحقيقة واحدة، بدون شك! الإ أن الزوايا التي ينظرون منها إلى الحقيقة تختلف من شخص لآخر. إن هذا الاختلاف في زوايا المشاهدة هو الذي يوجد التصورات المختلفة عن الحقيقة الواحدة. إن جميع صور الضلال في حقيقتها النهائية أخطاء في تفسير الحقيقة. فليس الضلال أن يخترع أحد قصة لا أصل لها،

بل الضلال دائماً تفسير خاطئ لواقع موجود. ونتيجة هذا التفسير الخاطئ، وكمقتضى له، تخرج الأخطاء من بطنه واحدة بعد الأخرى.

وعلى سبيل المثال، فإن من الوقائع المعروفة أن التكوين الجسماني لكثير من الحيوانات يشبه تكوين حيوانات أخرى كثيرة. فالشبه كبير جداً بين تكوين كل من الإنسان والضفدعة لدرجة أن طلبة الطب يبدأون تجاربهم الجراحية على الضفادع أولاً. إن هذا الشبه دليل للمؤمن على أن خالق الكون واحد، وأنه قد خلق جميع الحيوانات بحكمة بالغة، فلولا خلقه أجسام الحيوانات على نمط مشابه، لما تمكنت هذه الحيوانات من مواصلة الحياة والتعايش في بيئة واحدة خاصة - هي بيئة الأرض- ولما تمكنت من أداء واجباتها ضمن تلك البيئة. فكما أن السمك يحتاج إلى أعضاء وجوارح من نوع خاص للسباحة في الماء، فكذلك الطير يحتاج إلى نوع خاص من الأعضاء المشابهة لأعضاء السمك للسباحة في الهواء. والتكوين الجسماني لكل من السمك والطير مشابه لهذا السبب .ولكن علماء الارتقاء قد نظروا إلى هذا الواقع من زاوية أخرى، فزعموا فيه حقيقة مغايرة. لقد قام هذا التشابه دليلاً لديهم على أن مختلف الحيوانات (وكذلك الإنسان) لم توجد على حدة، بل كلها من نسل واحد وأولاد جد واحد أعلى. وشرحوا ذلك قائلين: إن هذه الصور الحيوانية ظهرت للوجود واحدة بعد أخرى بسبب خضوع جرثومة حياتية أولية لعلل مادية معينة. فالشبه بين السمك والطير يرجع لديهم إلى أن السمك في محاولته للطيران في الفضاء تحول إلى

الطير !! وبعبارة أخرى، فإن الشـيء الذي كان يذكرنا بإبداع الخالق قد تحول في هذه الرؤية إلى شـئ ينفي أي وجود للخالق! ولم يحدث هذا إلا لأنهم بدأوا يبحثون في شـئ، يدل على حكمة الخالق، عن خالق الكون نفسـه. لقد نظروا إلى الحقيقة من زاوية خاصة لم تكن هي الزاوية الصحيحة. إنه من الممكن أن ترى شـيئاً أشـبه بصخرة، بينما هو في مشـاهدته الصحيحة فيل !!.. فالخطأ كامن في النظر من زاوية خاطئة.

وهذا ما يمكن أن يحدث فيما يتعلق بتفسـير الإسـلام لو أخطأنا في النظر إلى نصوصه بالأسـلوب الصحيح. تذكر أن كون فكر ما جميلاً في عينيك أمر، وكونه صحيحاً في ضوء كتاب الله أمر أخر. فالشـيئان غير مرتبطين بالضرورة.. إنك سـتقول: فما المقياس الذي نطمئن باسـتخدامه على تفسـير ما، إلى أنه التفسـير الصحيح. إن القرآن الكريم يشـرح ذلك بوضوح، فيقول:" أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله ، لوجدوا فيه اختلافا كثيراً "[1].

إننا نجد في هذه الآية المقياس الواضح الذي يبين أنه لا شـئ في القرآن يتعارض مع شـئ آخر فيه , فإذا وجدنا أن تفسـيراً ما للقرآن يتعارض مع جزء آخر فيه فذلك دليل في حد ذاته على أن التفسـير (المتعارض مع جزء من القرآن) ليس من عند الله بل هو من عند غير الله بكل تأكيد ... فالمقياس القرآني القطعي لاختبار أي تفسـير- من الناحية النظرية - الأيديولوجية - هو أن يكون مطابقاً

---

[1] (النساء:82)

للدين كله كمجموعة. أما إثبات نظرية ما باستخدام الكلمات والألاعيب اللفظية فأمر في غاية السهولة. والنظرية لا توافق المجموعة توافقاً كاملاً الإ إذا كانت أصح تفسير للمجموعة الدينية كلها. أن خاصة كل تفسير خاطئ أنه لا يهتم الإ بنوع معين من الآيات، أما الأجزاء الأخرى من كتاب الله فتظل جزءاً من إيمان رجال هذا التفسير، ولكنها لا تكون أبداً جزءاً من عقولهم وبرامجهم. إن أفكارهم لا تتغذى من تلك الأجزاء التي أهملوها من كتاب الله. فإذا وجدت أن تفسيراً ما للدين لا يوافق القرآن كله، مثلما يوافق أفكار صاحب التفسير الذاتية، فتأكد أنه ليس تفسيراً للقرآن، بل هو تفسير لأفكاره الذاتية. فإن كان منبع دينك وتفسيرك هو القرآن, فالقرآن وحده هو الذي سوف يهيمن على كل تفسيرك. أما إذا كان تفسيرك مقتبساً من مصدر آخر، فإن ذلك المصدر هو الذي سوف يعبّر عن دينك أوضح تعبير.

ولكن هذا المقياس وحده لا يكفي لتشخيص أخطاء تفسير ما. فقد يحدث أن يخدع العقل صاحبه. فالمرء يخدع نفسه كثيراً بتأويلات كاذبة ويطمئنها بأن تصوره (الخاطئ) عن الحقيقة إنما هو التصور الصحيح، رغم عدم انسجامه مع المجموعة الكاملة. فإذا أضفنا بعض المقاييس (أو الشروط) العملية إلى هذا المقياس النظري السالف الذكر، لزال إمكان الخطأ ولأمكننا أن نحكم - بكل انشراح صدر- أننا قد ظفرنا بحقيقة الدين أو أننا لم نزل محرومين منه.

كيف تعرف أنك قد ظفرت بالدين، أم أنك لا تزال محروما منه ؟..
إن الشروط العملية التي يضعها الإسلام هي خير مقياس لتحديد ما إذا كنت مسلماً أو من غير المسلمين.

أن للإسلام شأنه شأن كثير من النظريات، آثاراً تظهر على المؤمن به. فهناك نتائج لابد من ظهورها على المرء بعد تصديقه لكتاب الله. وتلك النتائج أو العلامات مبينة واضحة في القرآن, أما إذا لم تظهر على المرء تلك النتائج أو العلامات الخاصة بالمؤمن فذلك دليل واضح على أن إيمان المرء ليس هو الإيمان الذي بعث الله رسوله لنشره، بل هو إيمان آخر من اختراع ذلك المرء.

ليس هناك فهرس كامل لهذه العلامات والنتائج التي لابد من ظهورها في حياة المؤمن. ويمكن بيانها بأساليب مختلفة وسأحاول فيما يلي بيان بعض أهم هذه الصفات المطلوبة من المؤمن بكتاب الله:

أولاً: يجب أن يلبسك إيمانك لباس التقوى

ولكي تفهم هذا يجب أن تدرس سورة الأعراف بإمعان . إن هذه السورة تقول لنا أن آدم وحواء فقدا لباسيهما عندما أكلا من الشجرة الممنوعة في الجنة. فتابا إلى ربهما، فغفر لهما ربهما وكساهما لباسيهما من جديد .

إن ما حدث مع جدنا الأعلى كان في حقيقته تمثيلاً خارجياً لحقيقة باطنية. إن اللباس الذي يذكره القرآن بأن آدم وحواء تعريا منه لم يكن لباساً من صوف أو قطن، بل هو اللباس الذي ألبسه الله

كل عباده المؤمنين، وهو اللباس الذي يحاول الشيطان تعرية المؤمنين منه. ولذلك يخاطب الله تعالى المؤمنين بعد ذكر واقعة آدم وحواء: " يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً، ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون.. يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما. إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم. إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون "[1].

فالله الذي متعنا بلباس لستر جسدنا الظاهري وللوقاية من الشتاء والصيف، قد متعنا في الوقت نفسه بلباس آخر أهم وأفضل من اللباس الظاهري وهذا اللباس نصر من الله، وهو يظهر في حياتنا في صورة التقوى ويقينا من هجمات الشيطان. وهو إنعام الله على عبده الذي يتقدم إليه تعالى بالإيمان:"وأتاهم تقواهم"[2].

إن الشيطان يكره هذا اللباس كرهاً شديداً , ويبذل قصارى جهده لخلعه من جسد العبد الذي يجده متزيناً به. إن الذين يتمتعون بنعمة الإيمان يشعرون بأنه يكسوهم هذا اللباس الإلهي. وإذا حدث في طرق الحياة الوعرة أن يغويه الشيطان ويبعده عن طريقه المستقيم، فإذا بالعبد يشعر بأنه قد " تعرى " من لباسه وعندئذ يهرع العبد إلى ربه تائباً مستغفراً، كما هرع آدم وحواء إلى أوراق التين لستر جسديهما. ولكن الغافلين عن الله لا يعرفون أن هناك لباساً للتقوى،

---

[1](الأعراف:26-27)
[2](محمد:17)

ولا يشعرون بأنهم كانوا يتمتعون بلباس، وأنهم قد حُرموا منه نتيجة أعمالهم السيئة. إنهم عرايا أشبه بالحيوانات والبهائم، ويموتون مثلها، ولكنهم لا يشعرون. وهذه هي الحقيقة التي بينها الله تعالى في نهاية السورة بهذه الكلمات:" إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون، وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون "[1].

ثانياً: إن الشهادة الأخرى على تمتعك بنعمة الإيمان أن يصلك "رزق الله "

إن كل ما تقوم به تنفيذا لأوامر الله إنما تقوم به بإرادتك.. فإن شئت فعلت، وإن شئت أبيت. ولكن هناك كيفيات من نوعية خاصة يمر بها المؤمن دون أن يملك إزائها الخيار. إنك لا تستطيع أن تخلق تلك الكيفيات الربانية. فمن أين تلك الكيفيات؟.. إنها من عند الله، إنها رزق المؤمن من عند ربه. ولا يمكن أن تحيا الشخصية الإيمانية بدون هذا الرزق . وهذا هو الرزق الذي وجده نبي العصر لدى مريم عليهما السلام، فسألها: " يا مريم أنى لك هذا ؟!!.. "، فردت عليه قائلة: " هو من عند الله "[2] .

إن جهودك هي أعمالك. وهذه الكيفيات السامية هي الجائزة التي يضفيها الله على العبد الذي يحسن عبوديته. إن الله تعالى لم يجعل إنعامه مؤجلاً، بل جعله معجلاً. إن العبد ليفوز بهذا الإنعام في

---

[1] (الأعراف: 201- 202)

[2] (آل عمران: 37)

اللحظة نفسها التي يستحقه فيها. إننا نمر بهذه الكيفية الملكوتية الربانية في نفس اللحظة التي يحظى أي عمل لنا فيها بالقبول والرضا لدى ربنا . إن هذه الكيفيات مقدمة للنعيم الذي وعد الله به عباده الصالحين. إنها قبس من عطر الجنة يجده المؤمن في قلبه.

إن القرآن الكريم يخبرنا بأن الجنة التي سيظفر بها أهل الإيمان هي: **" رزق معلوم "[1]** لهم.

إن تلك الجنة لن تكون شيئاً مجهولاً للعباد، لأنهم عرفوها في هذه الدنيا: " ويدخلهم الجنة عرّفها لهم "[2].

وقد جاء في الحديث الشريف: " لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا "[3] **.** وفي أثر آخر: "إن حسناته تكون دليلا إلى منزله فيها".

فعندما يتصدق الإنسان، وقد أصبح من "الذين يؤتون ما ءاتوا وقلوبهم وجلة "[4] .. وعندما ينعم بتلاوة قرآنية وقد صدق عليه " ترى أعينهم تفيض من الدمع "[5]**.** وعندما يقضي ليلته وقد أصبح ممن " تتجافى جنوبهم عن المضاجع "[6], وعندما تمر به لمحات يدرك فيها حقيقة أن "الذين آمنوا أشد حباً لله "[7], وعندما يشعر بألطف كيفيات

---

[1] (الصافات:41)
[2] (محمد:6)
[3] البخاري: كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة , رقم الحديث:6054
[4] (المؤمنون: 60)
[5] (المائدة :83)
[6] (السجدة:16)
[7] (البقرة:165)

الإيمان , وعندما تنكشف له فجأة حقيقة من الحقائق المكنونة , وعندما تتمتم شفتاه , وهو يناجي ربه في كيفية إلهامية , بكلمات لم تخطر له على بال .. فذلكم هو " رزق الله " الذي بدأ ينزل على العبد الصالح . إنه يستمتع بهذا الرزق الرباني بثمرة من الثمار التي حفظها ربه له , والتي سيظفر بها يوم الإنعام , يوم الدين . إن أهل الإيمان سيشعرون حينذاك أنها تلك الثمرات التي قد استمتعوا بمذاقها في الأرض :" كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها "[1] .

تذكر أن إنعام الآخرة , إنما هو عطاء متشابه ومعلوم ومعروف لدى المؤمن . فما أظلم من يعتقد أنه سوف يظفر في الآخرة بالثمرات التي لم يتذوقها في حياته الدنيا .

إنك إن لم تكن قد مررت بلمحات وجدت فيها نفسك أقرب الأشياء إلى الله , فكيف لك أن ترجو ذلك يوم الآخرة ؟!!.. لا شك أن الصلاة لها الأجر الكبير الذي به تقر عيون المصلين , ولكن كيف يستمتع المرء في العالم الآخر بتلك النعمة , إن لم يكن قد تمتع في عالمه هذا بالكيفية التي قال عنها النبي الكريم : " و جُعل قرة عيني في الصلاة "[2] .

---

[1] (البقرة: 25)
[2] النسائي: كتاب عشرة النساء, باب حب النساء, رقم-3878

ثالثاً : من الدلائل على أنك تتمتع بنعمة الإيمان هي "ألا تصاب حياتك الجمود والتعطل والانحطاط".

إن المرء الذي يختار الإيمان والعمل الصالح يظفر من عند الله بـ " حياة طيبة "[1].. وقد فسر الضحاك " الحياة الطيبة " بهذه الكلمات : " هي العمل بالطاعة والانشراح بها "[2] .

فما أبعد أن يصاب المرء بالجمود والانحطاط إذا كان متمتعاً بـ " الحياة الطيبة " من عند الله ؟ فإن رأيت مؤمناً مصاباً بالجمود والانحطاط , فذلك دليل واضح على أن إيمانه مرفوض من الله .

وإليك هذا المثال . إنك تشاهد سراج الكهرباء . إن السراج إذا لم يكن ثابتاً في موضعه , فهو إما أن يعطي إضاءة أقل أو ألا يضئ مطلقاً أو أن ينطفئ بعد أن يحمر سلكه , إلا أن السراج إذا كان مثبتا جيدا فإنه يعطي الإضاءة الكاملة وسيستمر في الإضاءة ما دام التيار الكهربائي متوفراً . وهذه الحالة هي حال المعرفة الإيمانية . فإن كنت تتمتع بالمعرفة الناقصة , فغير مستبعد أن تظهر بعض القبسات من نور الإيمان في حياتك , الإ أنها ستظل ناقصة ومؤقتة . ولكن لو وفقت إلى المعرفة الكاملة فإن حياتك كلها ستضيء وستظل مضيئة حتى آخر لحظة من حياتك , فإن نور هذه المعرفة لا يخمد . إن المعرفة الإيمانية الحقة هي أن تصل علاقتك بمولد قوى لا تتعطل ماكينته أبداً. فإن كان أحد المؤمنين يتمتع بهذه العلاقة فكيف يمكن

---

[1] (النحل : 97)
[2] تفسير ابن كثير: دار الشعب - ج/4, ص521

أن ينطفئ النور الإيماني من حياته ؟ ! أو يظهر بصورة عارضة منقوصة ؟!.

وليس هذا كل من في الأمر , بل يجب أن تسير قدماً يوماً بعد يوم , على درب الإيمان والهداية . فإن كان الإيمان قد ربطك بالإله العظيم الشأن الذي " كل يوم هو في شأن "[1], فكيف يمكن أن تجد إلهاً – هذه صفاته - ثم تظل حياتك راكدة عند مقامها لا تتقدم ؟..

إن المعطي إذا كان يغمر عبده بالعطاء في كل آن، فيجب أن يكون للعبد حصته من هذا العطاء، وأن يظهر أثر هذا العطاء في حياته وأن يشعر به. فإن لم يشعر العبد بهذا فمما لا شك فيه أنه قد تعطل في مكان ما، ولم يتمكن من إيجاد علاقة دائمة مع ذلك المنبع الفياض الذي يزيد المهتدين هدى :" والذين اهتدوا زادهم هدى "[2].

وفى النهاية أريد إزالة بعض المغالطات التي يمكن أن تثار.

إن من العوامل التي شدت الناس إلى بعض التفسيرات الدينية : أنهم رأوا أن هذا التفسير أو ذاك يفيد الدين. لقد ظنوا أن الجهد الذي يستفيد منه الدين لابد أن يكون مبنياً على فكر صحيح بالضرورة.

وعلى سبيل المثال: هذه نظرة بعض الناس إلى الحركة القاديانية الضالة، والتي لها نشاط دعائي كبير في الدول غير الإسلامية حيث تجذب الناس إلى دعوتها باستغلال اسم الإسلام.

---

[1] (الرحمن: 29)
[2] (محمد:17)

(ولكن الحقيقة أنه ليست هناك علاقة اللزوم بين الاثنين : صحة التفسير، وظهور الفوائد منها. إنه من الممكن أن يكون جهد الناس نافعاً للدين بينما هم أنفسهم ليسوا على الصراط المستقيم. فلو أنشأ بعض الرأسماليين مكتبة تجارية وطبعوا نسخ القرآن الكريم في أعداد كبيرة وباعوها في العالم كله، فلا شك أن الدين سيستفيد من هذا العمل.أما المشكوك فيه فهو مصير أولئك الرأسماليين القائمين بهذا العمل، وهل سيكون لهم أجر عند الله ؟ وذلك أن أعمال الكفاح الديني نوعان:

أولاً: شهادة الدين.

ثانياً: الدفاع عن الدين وحفظه.

إن شهادة الدين حركة خالصة لنشر الدين، وتقوم بعملها على المنهج الصحيح المستقيم من الناحية النظرية أو العملية ... وهذه هي المطلوبة منا. والذين سيبعثون كخدام هذا الدين- يوم القيامة - هم الذين كافحوا لأجل شهادة الدين.

أما حركة الدفاع عن الدين وحفظه، فهي صون الدين مباشرة أو بصورة غر مباشرة. ومن أمثالها الدفاع ضد هجمات الأعداء، والكفاح لأجل جزء من أجزاء الدين المتعرض للخطر أو الانقراض. أنه ليس من الواجب أن يتمتع المرء- القائم بهذه الحركة الدفاعية - بالفكر

الصحيح أو العمل الديني الصحيح . لقد جاء في الحديث: " إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر "[1] .

والأمر الآخر الذي يجب ملاحظته هو أنه ليس من الواجب أن تظهر نتائج التفسير الخاطئ في حياة كل من يتبع ذلك التفسير. فقد يحدث أن أحد المتأثرين بنظرية ما خاطئة، لا يجد في حياته تأثيراً لتلك الأخطاء التي يشير إليها الناقد. ولكن هذا ليس بدليل على بطلان النقد. فأي تفسير من التفسيرات لا يكون منفصلاً عن التاريخ، بل هو محاولة لعرض حقائق التاريخ بأسلوب جديد . ولذلك، فإن بعض المتأثرين ببعض التفسيرات يحتفظون- مع النتائج المنطقية للتفسير الذي تأثروا به- بمؤثرات تاريخية أخرى، استوعبوها في حياتهم السابقة على قبولهم ذلك التفسير من خلال بيئتهم وعلاقتهم الاجتماعية. لقد كان القس الألماني (توت) يدعو إلى "الاشتراكية المسيحية "، قائلاً : إنك لو أردت فهم القضايا الاجتماعية فعليك أن تضع الإنجيل على يمينك والكتب الاشتراكية على يسارك!.

أن هناك كثيراً ممن تأثروا بالفكر الماركسي واستمروا في تأدية الطقوس الدينية. ولا يعنى ذلك أن الاشتراكية أو الماركسية تقيم

وزناً للدين .. بل لأن الدين كان موجوداً في عقول هؤلاء القوم، قبل تأثرهم بالفكر الماركسي. لقد تأثروا شعورياً بالاشتراكية , الإ

[1] البخاري : كتاب القدر, باب / العمل بالخواتيم

أنهم لم يتمكنوا من انتشال لا شعورهم من الخلفيات الدينية التي رسخت في أعماقهم.

فهذا يحدث مع بعض المؤمنين بحركات قامت ثورة على الدين. فما بال الحركات التي تقوم مدعيّة إحياء الدين؟ إن إمكان حدوث مثل هذه الازدواجية هنا أكثر بكثير من الحالة الأولى . إن كل من ولد في بيت مسلم ليسلّم مبدئياً ببعض الأفكار، شعورياً أو بغير شعور. إنه كان يقوم بتأدية بعض الواجبات الدينية، وكان يؤمن بمعيار معين من معايير الرفض والقبول. فالآن إذا تأثر بتفسير جديد للدين فلا يمكن الادعاء بأن حياته الجديدة نتيجة لتأثره بالتفسير الجديد فحسب. أنه من المتيقن أن المؤثرات الجنسية والاجتماعية لها باع في تنشئته، فقد رسخت في نفسه عبر عملية طويلة معقدة. إنه لا يستطيع أن يتخلص منها نهائياً مهما ثار عليها. إن حياتك تتكون من مجموعة تصورات شعورية مكتسبة ومن مؤثرات اجتماعية. ولا يمكن فهم حياتك فهماً جيداً الإ إذا درسناها في ضوء كلا العاملين: النظرية التي آمنت بها , والخلفية التي نشأت عليها.

الفصل الثالث

حقيقة الدين

إن في الإسلام نوعاً من الثنائية ، كما هي موجودة في الإنسان .. فالوجود الإنساني يتألف من اجتماع شيئين ، هما الروح والجسد . والإسلام أيضا يتكون من جانبين ، هما الجانب الأخروي ، والجانب الدنيوي .

ولا تعني الثنائية أن الإسلام علم على مجموعة شيئين ، كلاهما على درجة واحدة من الأهمية . كما أن أصل الإنسان هو وجوده الروحاني ، وأن الإنسان لا يظهر إلا حين يتمتع بمظهره الجسدي ، فكذلك الأصل في الإسلام هو حقيقته الداخلية وهي التي يتوقف عليها فوز الآخرة ... ولكن الإسلام له مقتضيات فيما يتعلق بالعالم الخارجي الذي يوجد فيه . وهذه المقتضيات الخارجية ذات درجة ثانوية بالنسبة إلى أصل الإسلام نفسه . وهذه المقتضيات الثانوية الخارجية هي التي يسميها القرآن الكريم : " .. وأخرى تحبونها "[1]. إن الحقيقة الداخلية للإسلام هي أصله ، أما مقتضياته الخارجية أو الدنيوية فهي جزء إضافي .

---

[1] (الصف:13)

الهدف الحقيقي وراء خلق الإنسان:

إن القرآن يدلنا بوضوح على أن الهدف الحقيقي لخلق الإنسان هو أن يعبد الله : " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون "[1].

والمفهوم الحقيقي للعبادة هو الخضوع والتسليم التام لله تعالى . وهذا التسليم له درجتان ، أولاهما أن تبدأ جوارح الإنسان وأعماله الخارجية تعيش حياة الطاعة الكاملة لله في كل المجالات ، وثانيهما أن يسلم قلبه لله ، وينضم في عالمه الداخلي إلى ملكوت الله .

ويمكن فهم هاتين الدرجتين للعبادة من آية كريمة وحديث شريف:

" إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر"[2]

. إن الآية تقسم نصيب الإنسان من الصلاة إلى درجتين : الأولى أن يصبح الإنسان مطيعا لربه في حياته وفي كل أعماله الخارجية الدنيوية ، والدرجة الأعلى من الأولى هي أن يعمر ذكر الله قلب العابد ، وفي هذه الدرجة العليا يظل العابد يتمتع بفوائد الدرجة الأولى بكاملها، ولكنه يحصل على فوائد مضاعفة وهي أن الصلاة تتوغل داخل أعماقه لدرجة أن الصلاة تصبح علاقة نفسية بين العبد ومعبوده، بعد أن كانت طاعة خارجية .

---

[1] (الذاريات :56)
[2] (العنكبوت : 45)

وجاء في حديث جبريل عليه السلام : " ... أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "[1] .

إن هذا الحديث يحمل المعاني نفسها ، ولكن بأسلوب آخر ، وهو أن العبد عندما يعتلي المقام الأعلى من العبادة ، فإنه يظفر بقرب نفسي من الله ، وتنضم روحه مع الحقيقة الإلهية حتى يكاد العبد يظفر بنوع من " الرؤية " فيبدأ في رؤية الله تعالى ، رغم أنه لا يراه بعينه المادية .

والمطلوب من الذين لم يتبوءوا ذلك المقام الرفيع أن يعبدوا الله ويطيعوه حق طاعته ، حيث أنه - سبحانه – يراقب عباده في كل لحظة . ومن الواضح أن الذي يتيقن من مراقبة الله له لن يخالف أمره في نشاطاته الدنيوية ، وسوف يقضي كل ثانية من حياته يتوخى رضاه .

ويمكن بيان هاتين الدرجتين من العبادة بأن نقول : إن الدرجة الأولى - الدنيا – من العبادة هي الظفر بالدين على سطح الوجود الظاهري الجسدي . والدرجة الثانية – العليا – هي تشّرب العبادة حتى تصل إلى العقل والقلب . من الواضح أن تقسيمنا هذا ليس مطلقاً ، وإنما نستهدف من ورائه إفهام الأمر وتوضيحه .

إن الفوز بالآخرة موقوف على هذه العبادة . والقرآن أيضاً يذكر أن أصحاب الجنة من درجتين : الدرجة العليا هي لمن يسميهم القرآن

---

[1] (البخاري: تفسير سورة لقمان- 6 /144)

بأنهم " السابقون الأولون " ، والدرجة الدنيا هي لمن سماهم بأنهم " أصحاب اليمين " . وقد أوضح القرآن أن المجموعة الأولى من المؤمنين ستظفر بإنعام خاص من ربها, على حين ستظفر المجموعة الثانية بإنعام عادي .

مقتضيات الدين

يمكن فهرسة مقتضيات الدين دنيوياً في العناوين الرئيسية التالية :

1 – القيام المعاشي .

2 – الحصول على القوة المرهبة .

3 – التمكين في الأرض .

أولاً : إن الآية التالية تهدينا إلى المقتضى الأول : " .. أموالكم التي جعل الله لكم قياماً "[1] .

إن أهمية المال لدى أهل الدنيا هي أنهم يشترون به ترف الحياة . ولكن أهمية المال عند الله هي أن المؤمنين بدينه يحصلون عن طريق المال على " القيام أو التمكن الاقتصادي " في الأرض . فهي الأساس الذي يباشرون منه نشاطهم العالمي من إصلاح ودعوة .

---

[1] (النساء:4)

ثانياً : والآية التالية تدلنا على المقتضى الثاني ، أي الحصول على القوة المرهبة : " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم "[1] .

لقد أمرنا الله بأن نقوم بإعداد القوة ، وحدد لنا أن القوة هي التي تتصف بصفة إرهاب الأعداء ، أعداء الله والمؤمنين ، إنه من واجب مسلمي كل العصور والمجتمعات الإسلامية – بمقتضى هذا الأمر الإلهي الواضح – أن يدبروا ويعدوا القوة التي تعتبر القوة المرهبة في عصرهم .. فالخيول هي التي كانت القوة المرهبة في العصر القديم ، بيد أن تلك القوة قد تحولت اليوم عن المفهوم القديم . فالمطلوب ، الآن من صريح الآية أن يحصل المؤمنون على القوة التي تكفي لإرهاب أعدائنا في هذا العصر .

ثالثاَ : وهذه الآية تهدينا إلى الجزء الثالث من البرنامج الإسلامي لكل المؤمنين ، أي الكفاح من أجل التمكين في الأرض :

" وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً "[2] .

---

[1] (الأنفال : 60)
[2] (النور: 55)

إن هذه الآية ترشدنا إلى أن تمكن الحق في الدنيا ، والحصول على الأمن والسلام وتوفر البيئة الصالحة للعبادة والأنشطة الإسلامية المختلفة : لا يتأتى إلا عندما ينتقل حكم الأرض إلى أهل الحق . والحصول على الحكم السياسي في المجتمع يعد من أهم الحاجات الدنيوية لأهل الحق .

إن أي كفاح لتغيير الحكم لا يكلل بالنجاح إلا حين تتوفر له كل العوامل والظروف المساعدة . وقضية الظروف هي قضية عالمية . فنحن نحصل على " الظروف السياسية المساعدة " حين تتجمع عوامل كثيرة متباعدة في مكان وزمان واحد . إن تجمع هذه العوامل والظروف يتم عن طريق قوة كونية ، هي خارجة عن إرادة الإنسان . ولهذا السبب نفسه قد نسب الله هذا التغيير إلى ذاته تعالى :

" إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم "[1]. إن الله هو الذي يغير الأحوال وهو الذي يجعلها مناسبة لجماعة ما . إن الله قد خلق لنا هيكلاً مناسباً لظروف الدنيا الموجودة ، وقد وضع الله هيكل الدين ، أيضاً ، مناسباً لهذه الدنيا .

إن بعض أجزاء هذا الدين أصله وحقيقته وأساسه ، وبعضها الآخر قد أضيفت إليه لكي يوائم الدين هذه الدنيا التي أُرسل إليها الإنسان لقضاء فترة اختبار. ولو فهمنا هذه الحقيقة جيداً لما استعصى علينا فهم حقيقة الدين .

---

[1] (الرعد : 11)

وخلاصة القول أنه رغم أن كلمات الشهادة (لا إله إلا الله) هي وسيلة الدخول إلى الإسلام ، إلا أنها ليست هي كل المطلوب من المسلم ، فالمطلب الحقيقي هو أن يخلق في نفسه حالة العبودية الكاملة لله تعالى ، وهي التي خُلقت العوالم من أجلها . وقد شرح الإمام ابن تيمية حقيقة العبادة بكلمتين : " لفظ العبد يتضمن : كمال الذل وكمال الحب " . ونهاية هذه العبودية هي المرحلة التي سماها الرسول الكريم بالإحسان . فالعبودية هي أن يسلم المرء نفسه لله ، ويتوجه بكل مشاعره نحوه سبحانه ، حتى يصل إلى مقام من اللاشعور ، حيث يشعر بأنه أمام الله ، وأنه يرى خالقه وبارئه . والمؤمن يظفر بهذه الكيفية بمختلف الطرق ، كذكر الله وعبادته ، وتحمل التضحيات من أجله وفي سبيله ، وسلوك الطريق الإلهي في معاملات الحياة بالعمد والإصرار ، وإشغال القلب واللسان بأمور الله ، والتقرب إلى الله عن طريق الأدعية . فهذه هي الأشياء التي تقرب العبد من الله والإنسان الذي يطلبه الله هو هذا الإنسان . وهذا هو الشيء الذي تتوقف عليه رؤية الله في يوم الدين ، وبه يدخل العبد الجنة . فبالإحسان في العبودية يدخل المرء زمرة محبوبي الله .

إن الإنسان يجمع عنصرين هامين : الروح والجسد . وبالرغم من أن الروح هي الوجود الحقيقي للإنسان ، إلا أن وجود الجسد مع الروح يقتضي لوازم شتى ويجب مراعاتها مراعاة تامة طالما بقي الجسد مع الروح .. وكذلك الدين له حيثيتان ، الأولى وهي الحقيقية

، هي تلك التي لها أهميتها في الآخرة ، وحقيقته الثانوية أو الإضافية هي التي اقتضاها وجود الروح داخل الجسد ،وفي عالم الوجود المادي.

والدين لا يقتضي منا في حقيقة الأمر ، ولإجل الفوز في يوم الدين ، إلا ما هو مطلوب منا بوصفنا روحا ، ولا شيئ أكثر من ذلك مطلوب من العبد للفوز بالآخرة.

ولكن ، حيث ان جماعة المؤمنين تعيش داخل عالم يتصارع فيه الباطل مع الحق ، وحيث القوى الملكية وحيث الطواغيث ، فقد وجب على المؤمنين ، حتى يحصلوا على حقهم في الدنيا والتمكن في العالم ، أن يقوموا ببعض الواجبات. وما يفعلونه من هذه الناحية هو ما نسميه بجهادهم لأجل "غلبة الحق".

إن غلبة الحق أمر حتمي للمؤمن ، مثل الجسد الصحيح بالنسبة للإنسان الحي.

الفصل الرابع

حـكمـة الديـــن

إن علم "حكمة الدين " أو " أسرار الشريعة " من العلوم التي نشأت لشرح الإسلام وتفسره. إن هذا العلم يهدف إلى البحث عن الحكمة وراء التعاليم الدينية والتنقيب عن المصالح الكامنة فيها. فتحديد أركان الحج وواجباته، وتبيين أسلوب تأديته هو الفقه. أما أن تبين فوائد الحج فتقول: " إن الحج يكون- حول محور عبادة الله - مجتمعاً عالميا ًلأهل الحركة الإيمانية ".. فهذا هو علم حكمة الدين.

وكما أن معظم العلوم الإسلامية بدأت مع ظهور الإسلام، وتطورت فيما بعد، فكذلك كان البحث عن حكمة الدين من الموضوعات المحببة إلي نفوس علماء الأمة ومفكريها منذ ظهور هذا الدين.

إن قدراً كبيراً من المعلومات في هذا الموضوع متناثر في مكتبتنا الإسلامية الضخمة. ولكن الكتب التي تناولت هذا الموضوع نفسه قليلة جداً. فانه يمكننا أن نشير إلي مئات الكتب حول فن ما من الفنون أو علم ما من العلوم الإسلامية، الإ أن الأمر يختلف فيما يتعلق بموضوع حكمة الدين. ولعل كتاب " حجة الله البالغة " للإمام ولى الله الدهلوي أبرز جهد في هذا الحقل.

بيد أن هذه الجهود تتعلق بجانب واحد من جوانب حكمة الدين. فإنك لو ألقيت النظرة من جانب آخر على هذه الجهود، لتبين لك إن

علم " حكمة لدين " كان أقل حظاً وأنذر اهتماماً من جانب علماء الأمة.

إن حكمة الدين قسمان:

أولاً: دراسة حكمة كل جزء من أجزاء الدين، على حدة..

كأن تبحث عن حكمة الصلاة أو الصيام أو الجهاد. إن معظم الأعمال الإسلامية حول "حكمة الدين " تتناول هذا الجانب فقط. لقد اهتموا بتبيين حكمة الأحكام الإسلامية واحداً واحداً، وتحت عناوين مختلفة.

ثانياً: دراسة حكمة الدين بوصفه كلاً جامعاً ، حيث نبحث عن الحكمة الكلية الجامعة التي تربط كل أجزاء الدين، فنعرض الدين كلاً جامعاً مرتبطاً بعضه ببعض في إطار شرح يظهر وحدته الجامعة الحكيمة، ويفسر الحكمة التي جمع الله بها أجزاءه في كل واحد.

لقد بذل بعض الكتاب في العصر الحديث محاولات للبحث عن هذا النوع. حتى أنهم توصلوا- فيما يتعلق بأنفسهم- إلى تفسير يرون الدين في ضوئه " كلاً جامعاً ".

وحيت أن التفسير الباحث عن الحكمة له بريقه ورواؤه في حد ذاته، كما أن عرض دعوة فكرية ما في صورة نظرية متكاملة يجدب إليها الأنظار- فقد نجحت بعض هذه المحاولات. ولم يكن غريباً أن يجد أمثال هؤلاء الكتاب أتباعاً لهم متحمسين لدعوتهم.

إنك تعرف أن كل مجموعة من الأفكار ليست حقيقة بالضرورة . إن جمع أجزاء متفرقة في مجموعة فكرية مفهومة دليل فحسب على

أن تلك الأفكار كانت أجزاء حقيقة ما .. لكن الاحتمال يبقى قائماً بشدة ألا يكون ترتيب المجموعة، في حد ذاته، حقيقياً. فالأجزاء كلها حقيقية، أما أسلوب جمعها فهو من معجزات العقل الذي قام بذلك الجمع، لا أكثر.

إنه من الممكن أن يتم اكتشاف عظام متحجرة في منطقة ما أثناء الحفريات. ومن الممكن أن تتناول عظاماً من تلك المجموعة وتقيم هيكلاً معيناً يربط بعضها ببعض، ثم تعلن أن ذلك الهيكل يخص حيواناً معيناً وجد في عصر ما من التاريخ. سيبدو في ظاهر الأمر أن ادعاءك قائم على دليل. بيد أن الذين درسوا الارتقاء الحياتي يعرفون أن كثيراً من العلماء قد خدعتهم هياكل افتراضية كهذه، فرفعوا نظرية الارتقاء من مقام الفرض إلى مقام الحقيقة.

وقد ثبت غير مرة أن مثل هذه الترتيبات في العظام والهياكل كانت غير حقيقية بل مزيفة أحيانا. إنه يحدث كثيرا أن الرجل يربط أجزاء متفرقة فيعطيها صورة مخصوصة بسبب افتراضات ثبتت في مخه ، بالرغم من أن تلك الصورة لا علاقة لها بالواقع !.. أي أن الأجزاء قد تتعلق بصورة وهيكل فيربطونها – بمحض الإفتراضات - بصورة أخرى وهيكل آخر !.. وعل سبيل المثال : فإن العلماء ظلوا يؤمنون بأن "إنسان بلت داؤن" Piltdown Man هو أقدم هيكل لإنسان ما قبل التاريخ . ثم توصلوا بعد اجراء التجارب إلى أن ذلك الهيكل لم يكن إلا تلفيقا مزيفا لبعض العظام التي لم تكن لها علاقة ما بإنسان ما قبل التاريخ !!.

وكذلك الحال معنا ، فإن تفسيرا من هذه التفاسير الخاطئة الرامية إلى شرح الدين بوصفه كلا جامعا قد أقام صورة للدين متكاملة ، وقد استخدم هذا التفسير في تلك الصورة جميع أجزاء الدين . ولكن الفكرة الأساسية التي هي حجر الزاوية في هذه الصورة لم تكن هي الفكرة الصحيحة.

ويمكننا أن نتصور علاقة تلك الصورة بالدين الحقيقي ، بان نهدم بيتا ثم نستخدم طوبه وأحجاره وخشبه وحديده في تشييد بيت جديد في ضوء تخطيط معماري يختلف عن تخطيط البيت القديم . فالبرغم من أن البيت الجديد سوف يحتوي على ما كان يحتويه البيت القديم من مواد البناء ، إلا أنه سيمثل صورة معمارية مغايرة للصورة القديمة . وهذا ما وقع فيه صاحب التفسير المشار إليه آنفا. إن هذا الأسلوب لوضع تصور جامع جديد باستخدام أجزاء الدين لا يطابق روح الدين نفسه في شيئ ، بالرغم من أن هذا التصور الجامع يحتوي كل أجزاء الدين الحقيقية . ولهذا السبب اصطدم التصور الجديد مع التصور الصحيح للدين.

لقد بحث هذا التفسير عن حكمة جامعة بين مختلف أجزاء الدين ثم حاول ربط تعاليم الدين وأحكامه في ضوء تلك الحكمة الجامعة . وهذه الحكمة الجامعة هي فكرة " النظام ".. أي أن الإسلام نظام كامل جامع للحياة، وأن جميع أجزاء الدين ترتبط ببعضها تحت هذه الفكرة.

يقول صاحب هذا التفسير: " إن الإسلام هو نظام الحياة الذي يربط جميع قضايا الحياة الفردية والاجتماعية، وما بعد الطبيعية، وهو يعالج جميع تلك القضايا بما يطابق العقل والفطرة " .

ليس من الخطأ أن نقول إن الإسلام " نظام للحياة "، ولكن رفع "النظام" حتى يصبح هو الجامع بين كل أجزاء الدين , هو الخطأ بعينه. إن هذا الفكر يدرس الدين في ضوء الفكرة المسبقة القائلة بأن الدين هو نظام الحياة. إن الفكرة الجامعة لدى أنصار هذا الفكر هي أن " النظام " هو أصل المجموعة الدينية.. هذا، بينما الأصل في الدين هو كونه عنوان العلاقة بين الرب وعبده. إن الدين ليس محض نظام دستوري، قانوني وسياسي على غرار سائر الأنظمة الدنيوية، بل هو مظهر العلاقة النفسية للعبد مع الله. إن الدين عند تنفيذه يشمل عناصر كثيرة يمكن أن يطلق على مجموعتها بأنها "نظام الحياة". ولكن هذا مظهر من مظاهر الدين وحقيقة من حقائقه. إنها حيثية من حيثيات الدين، وليست هي الحيثية الأساسية.

إن الذين حاولوا دراسة الدين في ضوء فكرة " النظام " قد وقعوا في نفس الخطأ الذي وقع فيه الذين أقاموا لدراسة النظرية القائلة: " إن الإنسان حيوان اجتماعي ". إنه مما لا شك فيه أن للإنسان وجوداً اجتماعياً في حياته العامة. ولكن هذه الحيثية ليست هي الحيثية الأساسية للإنسان، فكونه اجتماعيا مظهر واحد من المظاهر التي يكتمل بها الوجود الإنساني. أن الحيثية الأساسية

للإنسان أنه مخلوق ذو روح وذو إرادة. أما الحيثيات الأخرى - من اجتماعية وغيرها- فكلها خارجة من بطن هذه الحيثية الأساسية. فالقول بأن "الإنسان حيوان اجتماعي" هو بمثابة القول بأن كون الإنسان اجتماعياً هو الأساس الذي يمكننا فهم الإنسان في ضوئه. ويترتب على هذا أن جميع حيثيات الإنسان سوف تتفرع من هذا الأصل، وسوف تكون جزءاً من أجزاء هذا الأساس. ويقتضي هدا التفسير لظاهرة الإنسان أن تكون جميع الحيثيات التي لا بد منها لظهور الإنسان تابعة لحيثيته الاجتماعية. فمثلاً يقتضي كون الإنسان حيواناً اجتماعياً أن يظهر في صورة الجسد والروح، وأنه لهذا السبب يتمتع بالروح والجسد.. وهو يقتضي أن تكون للإنسان سياسة، فلذلك يوجد لديه هيكل فكري سياسي .. وهذا التصور يقتضي أيضاً أن يقوم الحيوان الاجتماعي بتفسير علاقته بالكون، ولذلك ظهرت فلسفة خاصة به إلى الوجود الخ.. إن هذا التفسير لظاهرة الإنسان، يتناول في ظاهر الأمر كل حياة الإنسان، ويبدو تفسيراً متكاملاً. ولكنك لو أمعنت النظر لوجدت فيه أخطاء عديدة:

أولاً: إن الحيثية الأساسية للإنسان في ضوء هذا التفسير هي التمدن.. أما العناصر الأخرى فلا تجد لها مكاناً الإ كتوابع لهذه الحيثية الأساسية. هذا بالرغم من أن الأصل في الإنسان هو كونه ذا روح، أما جميع الحيثيات الأخرى فهي مظاهر أو توابع أو مقتضيات لهذا الأصل.

ثانياً: لقد تغير المطلوب من الإنسان بتغير النظرة إليه.

ففي ضوء هدا التفسير يكون المطلوب أساساً هو كل ما يساعد الإنسان على النهوض بتمدنه، بالرغم من أن المطلوب الأساسي يجب أن يكون الشيء الذي يكون مطلوباً منه كوجود روحاني.

ثالثاً: والأمر لا يتوقف عند هذا الحد، بل إنك إذا نظرت من الناحية العملية، فستجد أن كل شئ قد أختفي!.. فمنبع جميع نشاطات الإنسان ومظاهره هو الروح. ولذلك لا يمكن توقع نتيجة هامة في الحياة الإنسانية، الإ إذا كان يسندها اعتقاد راسخ في نفس الإنسان وأعماقه بضرورة تلك النتيجة وحتميتها لوجوده.

إن جميع هذه الأخطاء قد وقع فيها التفسير الآنف الذكر للإسلام. لقد جعل هذا التفسير " النظام " محور التصور الديني وحكمته الجامعة، ولذلك أصبح " النظام " الحيثية الأولى للإسلام في هذا التفسير، فلم يعد بالإمكان فهم الإسلام الإ في ضوء النظام !! وكانت النتيجة أن جميع أجزاء الدين قد ابتعدت عن أماكنها الحقيقية رغم وجودها في هذا التفسير الجامع . إن جميع أركان الإسلام أجزاء هذا التفسير، ولكن كأجزاء تابعة للنظام. فالعقائد جزء من هذا التفسير لأنها " الأسس الفكرية " لنظام الحياة هذا. والعبادات جزء من هذا التفسير لأنها " منهاج التربية " لإعداد رجال هذا النظام. والأحكام الإسلامية حول السلوك الاجتماعي جزء من هذا التفسير، لأنها، " الأساس الحضاري التمدني " لهذا النظام . والخلافة والإمارة جزء من هذا التفسير لأنها تعطي النظام صفة الإدارة القاهرة الرادعة وتمكنه من تنفيذ القوانين.

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التفسير أن تغير المطلوب الحقيقي . لقد برز الدين- بوصفه نظاماً- بروزاً عظيماً في خريطة هذا التفسير, وأصبح جانبه الحقيقي- عبادة الله ومراقبته – في غاية الضعف والإهمال.

وانحطت الحيثية الأساسية الداخلية للدين بينما طغت عليه حيثيته الخارجية. فكما أن مسئولية الإنسان في التفسير الاجتماعي كانت تغيير الأحوال الاجتماعية وتحسينها وليس تحسين الروح والفكر، ففي هذا التفسير أصبح هدف الكفاح الديني هو قلب النظام الباطل لإقامة النظام الحق، بينما كان الهدف الحقيقي للمسلم في دنياه ولأجل الفوز في الآخرة، هوالمجاهدة للحصول على الصلة القلبية والروحانية مع ربه، وهو الشيء الذي قد اصطلح له القرآن الكريم كلمات الذكر والشكر، الخشية والإنابة، التضرع والإخبات وغيرها.

وكانت نتيجة عد م التطابق التام بين الفطرة والواقع أن مُنيت هذه النظرية بفشل ذريع في أول تجربة لها. لقد خلقت " النظرية الكاملة" للدين مؤمنين ناقصين.. لم تنبت أيا من أجزاء الشجرة في صورتها المطلوبة، بسبب عدم وضع البذرة في مكانها الصحيح. إن العلاقة بين العبد وربه، وهى علاقة على أعظم درجة من الرفعة واللطف، قد أصبحت في خريطة هدا التفسير. علاقة سياسية!.

وهذا هو السبب في أن هذه النظرية لا تطابق آي القرآن الكريم، كما أن سيّر السلف الصالح ليست بكاملة على "مقياس هذه

النظرية. إن القرآن الكريم لا يحتوى على آية واحدة صريحة تدعم الخريطة الدينية التي أعدها هذا التفسير. إن خلاصة هذه الخريطة أن الدين هو النظام الكامل للحياة الإسلامية، وأن الكفاح لإقامة هذا النظام على الأرض هو الواجب الإسلامي المُلقى على عاتق المؤمنين.

ولكن كتاب الله لا يحتوى على فقرة ما تدل على هذا الهدف دلالة قاطعة. هذا هو الخطأ الأيديولوجي في هذا التفسير. أما من الناحية العملية فإن تاريخ الأمة كله يفتقر إلى مجاهد واحد كافح لأجل "حركة ثورية جامحة " من هذا النوع. لقد انتشر المسلمون في معظم أنحاء الأرض وقاموا بالدعوة إلى الإسلام وأقاموا دولاً إسلامية في بلاد كثيرة. ولكن لم يحدث في مكان ما أنهم بدءوا دعوتهم بالمناداة بالثورة الإسلامية، أو بإقامة " الحكومة الإلهية " .. وإذا كان بعض كتاب هذا التفسير قد حاول البحث عن بعض الأمثلة لمثل هذه الدعوة في تاريخ الإسلام، فإن ذلك لا يُعد من باب التاريخ بل هو تلفيق التاريخ. أما إذا ادعى مخترع هذا التفسير أن جميع الحركات الإسلامية في تاريخنا الطويل ناقصة، أو أن أصحابها لم يكونوا على دراية كاملة بالدين فإن مثل هذا التأويل إنما هو اعتراف بخطأ هذا التفسير وعدم علاقته بالإسلام الصحيح، ليس غير. وذلك لأن الاعتراف بخطأ رجل ما أهون من أن نعتبر تاريخ الدعوة الإسلامية كله ناقصاً.

إن بعض الناس يشعرون بخطأ هذا التفسير، ولكنهم يفتقدون

الشعور الواضح المحدد لنوعية هذا الخطأ .إن هؤلاء الناس لم يتمكنوا من تحليل ذلك الخطأ، ولذلك لم يفكروا بعد في أسلوب الحل الصحيح. إن خلاصة شعورهم أن الجانب الروحي من الإسلام قد تعرض للإنحطاط في خريطة هذا التفسير بينما برز جانبه السياسي بروزاً كبيراً. إنهم يرون إن للمصادفة دخلاً في ذلك، ومرده إلى الظروف الخاصة التي بدأ فيها صاحب هذا التفسير يعرض أفكاره. فقد كان ذلك هو عصر الطوفانات السياسية والحركات التي كانت قائمة على قدم وساق ضد الاستعمار الإنجليزي وكان من جرائه أن غلب الطابع السياسي على كتاباته . والحل أمام هؤلاء هو العمل على إبراز الجوانب التي تعرضت للإهمال عن طريق الخطابة والنشر، وبذلك نقدم التصور المتوازن للدين , حتى تستعيد الجوانب الأخرى من الدين مكانتها إلى جانب السياسة والحكم..

ولكن هذا تقدير ناقص جداً للواقع. أن هؤلاء يعتبرون أن هذا الفكر تأثر وقتي نابع من الظروف، بينما هو تفسير جديد مستحدث للدين. وللسبب نفسه يفكر هؤلاء الناس في اتخاذ تدابير مؤقتة. انهم يريدون تصحيح الفساد الكلي بالترميم الجزئي. ومثلهم في هذا كمثل الطفل الذي يجد لعبة *"Jigsaw Puzzle"* [1] فيرتب أجزائها على صورة الجمل , رغم أنها للحصان في حقيقتها. وقد يدعي أحدهم أن العنق فقط هو الذي طال في هدا الترتيب الخاطئ وأننا سنحصل على صورة الحصان لو انقصنا شيئاً من طول العنق. والواضح أن هذا

[1] هي لعبة مكونة من أجزاء خشبية يتم تركيبها فتعطي صورة معينة- المترجم

ليس تدبيراً صحيحاً، لأن كون الأجزاء خاصة بالجمل أو الحصان إنما يتعلق بالحكمة الجامعة لتلك اللعبة. أما إذا خُيل لأحد الناس أن الأجزاء الخاصة بالحصان هي للجمل، ثم يُقيم صورة له، فالذي سيحدث نتيجة لذلك ليس هو طول العنق فقط، بل لابد أن صاحبه قد حاول اعطاء المجموعة كلها صورة الجمل بدلاً من الحصان. ولذلك لا يمكن الحصول على صورة الحصان بمجرد تقصير مسافة عنق الجمل، بل يجب وضع الأجزاء كلها من جديد في مكانها المناسب.

التصـور الصحـيح للديــن

إن التصور الصحيح للدين، والذي يمكننا أن نفهم بإدراكه كل أجزاء الدين، والذي ينطبق على التاريخ الإسلامي كله: هو أن الدين في حقيقته الأساسية إيجاد علاقة الخوف والمحبة والولاية والتوكل مع الله. والمظهر اللازم لهذه العلاقة هو " العبادة ". والنتيجة الحتمية عندما يجعل المرء الله معبوده ومطلوبه وحبيبه: أن ينفذ أوامر الله ويتجنب نواهيه في حياته، ويجعل إرادته تابعة لإرادة الله. ولذلك، فإن كون المرء عابداً ومطيعاً لربه يقتضي بالضرورة أن يسخّر حياته لأجل ذلك المشروع العظيم الذي هو مشروع الله، والذي يحب الله أن يراه قائماً في الأرض. ومن هذه النقطة تبدأ جميع جوانب تبليغ الحق ونصرة الدين تغلب على حياته. فالحكمة الجامعة للدين هي "علاقة العبد بالله ". أما الأشياء الأخرى كلها فهي مظاهر هذه العلاقة الداخلية أو مقتضيات لها . وليست حكمة الدين الجامعة هي فكرة

"النظام " التي حاول بعض الناس ربط مختلف جوانب الدين النظرية والعملية على أساسها. فالتعاليم الدينية ليست فهرساً لأحكام من نوعية أو درجة واحدة، وهو الأمر الذي تقتضيه فكرة النظام. إن للدين حقيقة , والأشياء الأخرى كلها جوانب من تلك الحقيقة وتظهر في حياة المؤمن لمقتضيات شتى. وبعبارة أخرى، فإن بعض أجزاء الدين مطلوب كحقيقة، أما البعض الآخر من أجزائه فمطلوب بصفة إضافية. والمراد بالمقتضيات الحقيقية للدين أن يكتشف المؤمن الله داخلياً وحسيّاً، حتى يصير عبداً لله، ومحباً له . أما المقتضيات الإضافية فهي كل تلك الأحكام التي تعالج حياة المؤمن الخارجية ، والتي تبين سلوك أهل الإيمان تجاه مختلف الظروف الدنيوية. والمقتضيات الحقيقية مطلوبة من كل إنسان , وفى كل الظروف، ولا يؤثر فيها الزمن ولا الأحوال , وهي الأصل والمطلوب الأول الذي هو سبيل الخلاص في الحياة الآخرة . أما المقتضيات الإضافية فمطلوبة حسب الأحوال والظروف وتتسع دائرة تكليفها أو تنكمش حسب دائرة الاختبار المتاحة لعبد من العباد. فإذا كان العمل بالمقتضيات الإضافية متاحاً للعبد فهي مطلوبة منه بالضرورة تماماً كالمقتضيات الحقيقية نفسها. أما إذا كانت الظروف غير متاحة للعمل بالمقتضيات الإضافية فأهل الإيمان لا يتحملون وزر عدم التزامهم بها . فهذا التمييز بين أحكام الدين- من حقيقية وإضافية – إنما يوضح الفرق النوعي بين الأحكام الإسلامية. وهذا الفرق النوعي بين أحكام الدين ليس حول وجوب حكم ما أو عدم وجوبه ، بل هو عن الظروف التي يجب فيها

الانصياع لحكم ما أو عدم وجوب الإنصياع له. أما إذا كانت الأحكام – من كلا النوعين - واجبة ومطلوبة من العبد في ظرف من الظروف , فلا فرق بينهما من ناحية الأداء البتة.. أي أن كليهما يكون حينذاك مطلوباً بقدر واحد من الأهمية.

إن هذا الخلاف الفكري الذي بينته آنفاً ينشأ عنه الخلاف في النظر إلي المهمة ذاتها التي تقع على عاتق المؤمن بنظرية ما. فإن وجود الشيء - الجامع بين مجموعة ما - يعنى وجود المجموعة كلها , وانعدامه يعني انعدامها كذلك. والمؤمن بنظرية ما يسعى إلى تحقيق الشيء الجامع بين أجزاء المجموعة قبل أن يسعى لتحقيق أجزائها الإضافية . والذي لاحظناه بين رجال التفسير المشار إليه آنفاً، أنهم يهتمون أشد الاهتمام بإقامة النظام، ومرده إلى هذه العقلية الخاصة التي جعلت الدين " نظاما ". ولكن نرى على العكس من ذلك أن الكفاح الأساسي لدعاة الإسلام كان يرتكز على ترسيخ مفاهيم الله والآخرة في أذهان الأمة. وكان السبب في ذلك أن دعاتنا كانوا يؤمنون بأن هذا هو الأساس الذي تقوم عليه جميع المظاهر الدينية الأخرى.

الفصل الخامس

ما هـو الدين

إن أحكام الدين مماثلة لبعضها شكلاً , ولكن انطباقها على العباد ليس مماثلاً. فمثلاً يأمرنا الله تعالى : " أقيموا الصلاة " ، ثم يأمرنا: " ءاتوا الزكاة ". إن الحكمين مماثلان شكلاً، وهما في صيغة أمر واحدة. ولكن انطباقهما على المؤمنين ليس مماثلاً. فالأمر بالصلاة مطلق، وهي مطلوبة من المؤمنين في كل الظروف، ولكن الزكاة لا ينطبق أمرها على المؤمن الإ عند اكتمال النصاب.. وهى أمر قطعي للذي اكتمل لديه النصاب، وقطعيته بالنسبة إلى ذلك المؤمن مماثلة للأحكام الأخرى القطعية كالصلاة. أما المؤمن الذي لم يكتمل لديه النصاب فليس مطلوباً منه تنفيذ هذا الحكم، كما أنه ليس مطلوباً منه أن يسعى جهده ليمتلك قدراً من المال حتى يتمكن من الامتثال لأمر الزكاة.

إن خطأ التفسير " النظامي " للدين يكمن في عدم فهمه النسب المختلفة بين الشرع والمشرع له، فأعطى حيثية واحدة لكل أحكام الدين، وبذلك أوجب تنفيذ الإسلام وإقامة الدولة الإلهية، بوصفها نظام حياة كاملاً. وفات هذا التفسير أن هناك أجزاء من الإسلام مطلوبة بالضرورة، وأخرى مطلوبة عندما تتيح الظروف فرصة تنفيذها. ونحن لسنا مكلفين بحكم من الأحكام الإ حسب نوعية

وجوبه علينا. فإذا كان الأمر من النوع المطلوب منا في كل ظرف من الظروف، فهو مطلوب منا بالضرورة، ولن يكتمل إسلامنا في ذلك الظرف الخاص بدون الانصياع لذلك الأمر . أما إذا كانت الظروف الخاصة بذلك الحكم غير منطبقة علينا فنحن لسنا ملزمين به. إننا لسنا ملزمين أن نسعى لخلق الظروف التي نصبح فيها مكلفين لأداء حكم من الأحكام.

الأصل المطلوب:

والآن سوف أوضح التفسير الصحيح لعلاقتنا بمختلف أحكام الدين. إن القرآن واضح في تبيان أن الأصل المطلوب من العبد هو عبادة الله: " وما خلقت الجن والإنس الإ ليعبدون "[1].

وقد بين كتاب الله هذا المفهوم بأساليب مختلفة :

" يا أيها الناس اعبدوا ربكـم "[2] .

" واعبد ربك حتى يأتيك اليقين "[3].

" وما أرسلنا من قبلك من رسول الإ نوحي إليه أنه لا إله الإ أنا فاعبدون "[4].

إن هذه الآيات صريحة الدلالة على أن هدف الخلق ومسئولية المخلوق: أن يعبد خالقه.

---

[1] (الذاريات:56)

[2] (البقرة:21)

[3] (الحجر: 99)

[4] (الأنبياء:25)

و " أصل العبودية الخضوع والتذلل "[1].

" أصل العبودية الخضوع والذل "[2] .

ويذكر أبوحيان الأندلسي: " العبادة التذلل , قاله الجمهور "[3].

ولهذا يستخدم القرآن الكريم كلمة (الاستكبار) في مقابل كلمة (العبادة): " إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم ذاخرين "[4].

ولتوضيح الأمر، سأنقل فيما يلي آراء بعض العلماء والمفسرين:

عبد الله بن عباس: " إياك نعبد: يعني إياك نوحد ونخاف ونرجو ربنا, لا غيرك "[5]

فخر الدين الرازي: " العبادة عبارة عن ا!لفعل الذي يؤتى به لغرض تعظيم الغير، وهي لا تليق الإ بمن صدر عنه غاية الإكرام "[6].

علاءالدين البغدادي: "العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل وسُمى العبد عبداً لذلته وانقياده "[7].

قمي النيسابوري: " أن العبادة عبارة عن نهاية التعظيم فلا يليق الإ لمن صدر عنه غاية الإنعام وهو الله تعالى "[8].

---

[1] لسان العرب.
[2] صحاح الجوهري.
[3] البحر المحيط: ج1,ص23.
[4] (المؤمن :60)
[5] الذر المنثور:ج1, ص114
[6] التفسير الكبير: ج1, ص189
[7] تفسير الخازن: ج1, ص19
[8] غرائب القرآن على حاشية بن جرير: ج1, ص91

القاضي البيضاوي: العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل، ولذلك لا تستعمل الإ في الخضوع لله تعالى "[1] .

أبوالسعود: " العبادة أقصى غاية التذلل والخضوع "[2].

الألوسي البغدادي: " العبادة أعلى مراتب الخضوع , ولا يجوز شرعاً ولا عقلاً فعلها الإ لله تعالى , لأنه المستحق لذلك , لكونه مولياً لأعظم النعم من الحياة والوجود وتوابعها "[3].

الشيخ علي المهائمي: " العبادة تذلل للغير عن اختيار لغاية تعظيمه "[4].

لقد أتضح من هذا أن المفهوم الحقيقي للعبادة هو الخضوع والذل للمعبود , ولكنها حين تطلق على علاقة العبد بمعبوده يدخل إليها عنصر المحبة حيث لا يمكن أن يكون خضوع المؤمن خضوعاً حقيقياً الإ إذا داخله عنصر الحب. ولهذا السبب دمج العلماء هذا المفهوم مع لفظة (العبادة) .

يقول الحافظ ابن كثير : " العبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق معبد، وبعير معبد أي مذلل، وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف "[5].

---

[1] أنوار التنزيل: ج1, ص6

[2] إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن

[3] روح المعاني: ج1, ص81

[4] تفسير المهائمي: ج1, ص24

[5] تفسير القرآن: ج1, ص25.

ويقول الإمام ابن تيمية:" لفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال المحبة "[1].

وكتب الحافظ ابن القيم: " العبادة تجمع أصلين، غاية الحب لغاية الذل والخضوع "[2].

إن الأصل في العبادة الذلة أمام الله، وهو المفهوم الذي يطلق عليه القرآن الكريم مختلف المصطلحات، كالخشية والتضرع والإخبات والإنابة والخشوع والخضوع والقنوت. إن العيادة أن تخضع لله تماماً. وعبادتك هذه ليست بأن تسجد لأحد الجبابرة والفراعنة، بل هي عبادة معبود غاية في الرحمة بعباده إننا نعبد إلهاً، نحن مدينون له بكل ما نملكه ونمثله، ولذلك لابد أن يدخل عنصر الحب إلى الخضوع. أن العلاقة بين العبد وإلهه هي علاقة غاية الذل والخضوع . فحين يتضرع العبد من شدة الخشوع، وحين تنهمر العبرات من عينيه من خشية الله ، يهدي العبد أعظم أمانيه وآماله إلى معبوده بكل شوق، وهو يجد نفسه في أسمى كيفيات الحب الإلهي:

" والذين آمنوا أشدّ حباً لله "[3].

إن المذلة أمام الله تكون لغاية الخشية منه، ولكنها ليست كالخوف الذي يتولد لديك من رؤية شئ مخيف في ظلام الليل. والحقيقة أن كيفية " الحب- الخوف " هذه لا يمكن التعبير عنها

---

1 رسالة العبودية : ص68.
2 تفسير ابن القيم : ص65.
3 (البقرة: 165)

تعبيراً صحيحاً بالكلمات المتاحة في معاجمنا. إنها كيفية تجمع بين غاية الأمل وغاية الرهبة، ولا يتمكن العبد - أبداً- من ترجيح عنصر على العنصر الآخر. إنها مزيج من الحب والخوف، حيث يجري الإنسان نحو الذي يخافه، ويتمنى وصال الذي يخشى عذابه. وهي اضطراب كله سكون، وسكون كله اضطراب!...

إن العبادة في حيثيتها الحقيقية واقع حسي، وليست واقعاً خارجياً. أن الإنسان، في التحليل النهائي, وجود شعوري، ولذلك لا يمكن أن، تكون العبادة واقعاً خارجياً بالنسبة إلى الإنسان، بل لابد أن تكون واقعاً شعورياً داخلياً.. ولعل هذا هو السبب في أن الله تعالى جعل التقوى نتيجة للعبادة:

" يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلفكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون "[1].

إن العبادة في حقيقتها الخارجية: " حياة التقوى "، وهى في حقيقتها الداخلية: إدراك الله إدراكاً عميقاً والتعلق به سبحانه بعلاقة متينة، تلك العلاقة التي يظهر فيها العبد بكيفية: " تعبد الله كأنك تراه "[2].

إن أعلى مدارك العبادة أن يستغرق العبد في ذكر الله وتصوره سبحانه حتى يشعر وكأنه يراه ويحس به. وهذا الشعور هو منتهى العبادة. وجميع الأعمال من مناسك وطقوس العبادة طرقٌ للوصول

---

[1] (البقرة:21)

[2] البخاري: كتاب الإيمان, باب سؤال جبريل النبي, رقم- 48

إلى هذا المنتهى. أما إذا كان هناك من يرفض هذه الأعمال التعبدية أو يدعي عبادة الله والتقرب إليه سبحانه بدون سلوكها، فهو كاذب في دعواه، لأنه لا عبادة بدون سلوك أعمالها الصحيحة المقررة.

إن العبادة تشمل الشريعة كلها، فكل ما يأتيه المؤمن لإرضاء ربه وتنفيذ أوامره، هو من العبادة. ولكن العبادة، في أساسها، نوع معين من الأعمال بين العبد وربه . أما ما يقوم به العبد مع عبد آخر فهو من مقتضيات العبادة. إن العمل الذي يقوم بين العبد وربه مباشرة، هو العبادة ذاتها. فالعبد يعبد ربه مباشرة، حين يصلي ... إنه يجد معبوده نفسه، دون حاجز. وعلى العكس من ذلك، فإن العبد حين ينفذ أوامر الله، فهو يفعل ذلك مراعاة لمقتضيات عبادته الله. أن هذه المقتضيات واجبة كالعبادة نفسها، ولكن يجب ألا نتجاهل الفرق الكبير بين نوعي العبادة (العمل التعبدي نفسه ثم مقتضياته)، والإ ضاع منا التصور الصحيح للأعمال الدينية، وذلك لأن المقتضيات دائماً ثانوية، ولا تكون مطلوبة الإ لسبب شئ آخر أساسي، بينما يكون الشئ الأساسي مطلوباً لذاته وبصفة مطلقة. ومثاله كأن نقول: "من مقتضيات الإسلام أن يورّث المسلم تركته حسب القانون الإلهي ".. ليس معنى هذا القول أنه يجب على كل مسلم أن يحاول امتلاك بعض الأموال والعقارات حتى يتمكن من تنفيذ الأحكام الإسلامية الخاصة بالميراث . أن هذا القول يعني فقط، أن على كل مسلم أن يقسم ما لديه من أموال لمن يستحقونها من ذويه

حسب القوانين الإسلامية .. إن هذا الواجب مطلوب ممن يمتلكون شيئاً، وهو ليس بمطلوب ممن لا يمتلكون شيئاً.

يتضح من هذا الشرح أن علاقة الحب والخشية بالله ليس فقط "عاملاً " من عوامل الحياة الإسلامية، بل هو المطلوب الأصيل الذي لابد أن نجاهد من أجله في الحياة الدنيا . يجب أن تتجه كافة أعمالنا وأفعالنا نحو هذا الهدف المنشود العظيم الذي وصفه العلماء بمصطلحات " الوصول إلى الله " و " التعلق بالله ". وبعبارة أخرى، ليست علاقتنا بالله علاقة خارجية وعقلية افتراضية، كأن نتوهم بأن إتياننا هذا العمل أو ذاك سيجعل رب السماوات يرضى عن سلوكنا. بل لابد من التقدم إلى الأمام، لابد من تكوين علاقة مباشرة مع الله.

إن أفعال العبادة في صورتها الظاهرة تنفيذ لأحكام الله، ولكن تلك الأفعال هي الدرب الذي يسلكه العبد في رحلته للقاء ريه, يناجى ربه، يتضرع إليه، ويلجأ إليه بكل مشاعره حباً وخشية، يشعر بأنه قد ألقى بنفسه بين يدي معبوده العظيم. إن لقاء العبد بربه هكذا، وفى هذا العالم هو أسمى حقائق الدين، وهو الهدف النهائي لجميع الأفعال التعبدية. إن الذي وجد ربه في دنياه سيجده في أخراه، والذي حُُرم من لقاء ربه في دنياه سيظل محروماً منه في أخراه.

ينبغي ألا يسئ أحد الفهم، فيزعم أنني أؤيد هنا النظرية القائلة بأن كمال العبد في أن يلتقي بربه في هذه الدنيا ، وقد بالغ بعض دعاة هذه النظرية حتى ادعى أن " المعراج النبوي " هو المثل

الأعلى الذي ينبغي أن نجهد أنفسنا للوصول إليه!. إن هؤلاء وأمثالهم قد وقعوا في خطأ عظيم . لقد اعتبروا علاقة العبد بالله حقيقة مادية، في حين أنها قضية روحانية حسية .إن القرب الحقيقي من الله تعالى سيكون في الآخرة، وليس في مكان آخر. ولن يحصل على ذلك القرب يوم الدين سوى الذين تمتعوا بعبيره في هذه الدنيا. والفارق بينهما أن القرب الذي نتمتع به في هذا العالم يكون قرباً حسياً، بينما القرب الأخروي سيكون واقعاً حقيقياً.

ونظراً لهذه الاعتبارات لا يمكن تعيين المطلوب الحقيقي من الدين بأن ندعي أن " هدفنا هو إقامة النظام الحقّ في الدنيا ". أن هذا الهدف - مع صدقه وأهميته الحيوية المصيرية - لا ينطبق على الهدف الأساسي الذي نزل من أجله الدين الإلهي . وذلك لأننا نجعل من أمر خارجي الحقيقة النهائية للدين، بينما حقيقة الدين النهائية حقيقة باطنية. أن محطنا الأخير في الحياة الدنيا أن نصل إلى الله كمعبود حقيقي وأن نتعلق به حسياً , وليس أن نتمكن من إقامة هيكل اجتماعي وسياسي , أو أن نكون قد جاهدنا لإقامته . الإ أنه إذا كانت أحوال أهل الإيمان تمكنهم من إقامة حكم إسلامي أو كانوا يستطيعون إقامته بعد الخوض في نوع من أنواع الجهاد , فلابد لهم من أن يقوموا بواجبهم هذا أحسن قيام، وفي أكمل صورة، دون أن يعتبروه الهدف النهائي للدين.

مقتضيات العبادة

أن الشـيء المطلوب من المسـلم، أصلاً وأسـاسـاً، هو الخضوع لله تعالى، ويسـمى العبادة. ولكن الإنسـان لم يخلق في فراغ, بل هو يعيش عـالم الوقائع، ولذلك لابد أن تكون ردود فعله تجاه هذه الوقائع مطابقة لمقتضيات عبوديته لله. وردود الفعل هذه تتمثل في جوانب شـتى:

(1) هناك جانب يتعلق بالأحوال الخارجية. فكلما واجه المسـلم قضية من القضايا في نشـاطه الدنيوي وأمكنه سـلوك طريقين في مواجهة تلك القضية: طريق إلى الله، وطريق إلى الطاغوت والنفس، تقتضي العبودية أن يسـلك المسـلم طريق الله تاركاً جميع المسـالك الأخرى، ليعبده في عـالمه الخارجي بعد أن أتخذه معبوده في عـالمه الداخلي.

أن مظهر العبادة هذا، الذي يظهر في حياة المسـلم تجاه الأحداث والأحوال الدنيوية، يسـمى **الطاعة**. وأماكن هذه الطاعة هي جميع الأماكن التي يواجهها المسـلم في حياته كالبيت والمكتب والسـوق والبرلمان، الخ..

(2) وهناك جانب آخر يتعلق بجميع عباد الله الغافلين عن ربهم، والذين سـيصلون نار الجحيم بسـبب هذه الغفلة. وقضيتهم الدقيقة هذه تحتم على المؤمن أن يحاول هدايتهم إلى الدين الحق الذي هو نفسـه قد اهتدى إليه. وهذا المظهر من العبادة الذي يظهر

بالنسبة إلى البشر غير المهتدين، يسمى الشهادة , أو التبليغ، أو الدعوة إلى الإسلام.

(3) والجانب الثالث من مقتضيات العبادة يتعلق بالمسلمين، هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله. إن الله يأمرنا بإقامة نظام يجمعهم لصلاحهم ولنصحهم فيما بينهم، وهذا ما يطلق عليه القرآن الكريم مصطلح: " التواصي بالحق والتواصي بالصبر " ، وهو يسمى أيضاً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا المظهر الثالث من مظاهر العبادة يتعلق بجماعة المسلمين نفسها.

(4) والجانب الرابع من هذه الجوانب هو: " نصرة الدين " والدفاع عن الإسلام كلما تعرض لأي مكروه.

أن هذا المقتضى الأخير ليس بمنفصل عن المقتضيات الثلاثة الآنفة الذكر , ولكن وضعناه على حدة لبيان أهميته الخاصة.

ولنناقش الآن هذه المقتضيات الأربعة:

أولاً : الطاعـــة

أبين- بادئ ذي بدء- أن الطاعة والعبادة ليستا شيئين منفصلين . إن تقسيمنا هذا اعتباري فقط، وقد اخترناه لإيضاح نوعية الحكمين: مثلما يفعل الفقهاء حين يطلقون عليها مصطلح " الأحكام التعبدية " لفصلها وتمييزها عن أحكام الأخلاق والمعاملات , مع علمنا بأن الأخلاق والمعاملات تدخل أيضاً دائرة العبادة، بأسلوب أو آخر، وهي ليست بمنفصلة عنها.

و الطاعة قسمان: فردية واجتماعية.

والمراد من الطاعة الفردية الامتثال لأحكام الله في الشئون المتعلقة بحياة الإنسان الذاتية، وتدخل فيها جميع الأحكام الخاصة بالأخلاق والمعاملات وكل ما يقوم به الإنسان بإرادته الشخصية وكل ما كان باستطاعته أن يسلك فيه سبيلاً دون آخر. إن الامتثال لأوامر الله في هذه الشئون طاعة فردية. ولا يجوز لأي مسلم يعلم مشيئة الله في شأن من الشئون أن ينحرف عن الامتثال لها " وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى ورسوله أمراً، أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً "[1].

هذه الطاعة الفردية حق من حقوق الله على كل عبد. ولا يمكن اعتبار أحد، كائناً من كان، عابداً لله سبحانه وتعالى، ما لم يمتثل لأوامره سبحانه في حياته الخاصة. فإذا كانت العبادة أن يسلم العبد داخله لربه، فالطاعة أن يسلم خارجه له تعالى . أنه يجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يطيع الله طاعة كاملة في كل صغيرة وكبيرة من شئون الدنيا التي تواجهه في معترك الحياة. ومن مقتضيات الطاعة أن يطيع العبد ربه حتى في طعامه و شرابه:" يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله، أن كنتم أياه تعبدون "[2].

والقسم الثاني من هذه الأحكام، الذي أطلق عليه اسم الطاعة الاجتماعية، لا يخضع لمشيئة فرد واحد من أفراد الأمة , بل يجب

---

1 (الأحزاب:36)

2 (البقرة:172)

الامتثال له حين يكون المجتمع كله مستعداً لتنفيذه . لقد نزلت أحكام الطاعة الاجتماعية حين كان أهل الإيمان قد تمكنوا من إقامة نظام سياسي بينهم، وكانوا قد اصبحوا قادرين على إدارة الشئون السياسية وتنفيذ الأحكام الاجتماعية بأنفسهم. إن المسئول عن الأحكام الاجتماعية في الشريعة هو المجتمع المسلم القادر، وليس فرداً أو عدة أفراد منفصلين متفرقين. إننا نرى في تاريخ بنى اسرائيل أن الأحكام القانونية من التوراة لم تنزل عليهم أثناء وجودهم في مصر، لكن حين أصبحوا طائفة حرة ذات إرادة - بعد الخروج من مصر - أرسل الله إليهم تلك القوانين. وهذا ما حدث مع الإسلام. فلم ينزل من الشريعة بمكة الإ ذلك الجزء المطلوب من كل مؤمن ومؤمنة، والذي لابد من الامتثال له في كل الظروف , أما الجزء الآخر - الأحكام الاجتماعية - فقد نزل بعد أن حاز أهل الإيمان، السلطة السياسة عقب الهجرة.

إن هذا الترتيب في نزول نوعى الأحكام يبين أن أهل الإيمان مكلفون - في الظروف العادية - بذلك الجزء فحسب الذي نزل قبل تمكن المسلمين من السلطة السياسية، أما الأحكام الأخرى فتكون مطلوبة حين يتمكنون من السلطة التي لابد منها لتنفيذ تلك الأحكام.

إن نزول الأحكام الشرعية الاجتماعية عند اتساع دائرة الاختيار فقط وليس قبله، يبين أن هذه الأحكام ليست مطلوبة بصفة مطلقة، بل هي مطلوبة في أحوال وظروف معينة. ويمكن القول بعد النظر

في أحوال جماعة معينة من أهل الإيمان - بأن هذه الأحكام مطلوبة منهم أو غير مطلوبة. فالحقيقة أن المسئولين عن تنفيذ الأحكام التمدنية والاجتماعية من الدين هم أولئك المؤمنون الذين يكونون قد حازوا بالفعل على القدرة على تنفيذها. أما المؤمنون الذين لم يملكوا بعد الإ دائرة اختيار ضيقة فليس بمطلوب منهم أن يحاولوا – بالضرورة - تنفيذ الأحكام الخاصة - بالدولة والمجتمع.

إن تنفيذ الأحكام طلب عملي، ولا يمكن توجيه طلب ما الإ إلى القادر على تنفيذه وبقدر ما يكون قادراً. ففي الشريعة مقياس واضح " لا يكلف الله نفساً الإ وسعها "[1] .

إن الله لا يكلف نفساً ما ليس بوسعها، فكيف يمكننا أن نعتبر بعض أهل الإيمان مكلفين بأحكام هم غير قادرين على تنفيذها ؟!!.. أما إذا عرض أحد الناس الخريطة الكاملة لجميع أحكام الدين وادعى أن جميع المؤمنين مكلفون بها في جميع الظروف، فمثله كمثل الذي يشير إلى أحكام جميع أنواع الزكاة ثم يدعى أن جميع المسلمين مكلفون بالسعي لامتلاك جميع أنواع الثروات حتى يمتثلوا لجميع أنواع أحكام الزكاة.

فالواضح أن مقتضيات الدين ليست مطلوبة من المؤمنين بصفة مطلقة، بل هي مطلوبة بحسب أحوالهم فكلما اتسعت دائرة أهل

---

[1] (البقرة:286)

الإيمان اتسعت دائرة مقتضيات الدين المطلوبة منهم، والعكس بالعكس.

فعندما يكون المؤمن وحيداً لا يكون المطلوب منه سوى الأحكام المتعلقة به كفرد. إن المؤمن إذا كان وحيداً لا يهتم الإ بمجال ذاته وحده، أما إذا كان في عشيرة وأسرة فستنطبق عليه وعليها أحكام العشيرة والأسرة. وحين تتطور العشيرة بدورها إلى مجتمع قادر فسيكون المطلوب من ذلك المجتمع تنفيذ جميع الأحكام الخاصة بالمجتمع. وحيث لا يمكن تسيير الشئون - على هذا المستوى الأخير - بدون إقامة حكم سياسي، فسيصبح واجب ذ لك المجتمع القادر – تلقائياً - أن يقيم على نفسه أميراً سياسياً، وينفذ الأحكام الإسلامية تحت قيادته.

وقضية نصب الإمام تتعلق بهذه الصورة الأخيرة، وهي واجبة:

" نصب الإمامة عندنا واجب ". (شرح المواقف)

" لابد للأمة من إمام " . (شرح المقاصد)

" المسلمون لابد لهم من إمام " . (عقائد النسفي)

وتتضح أهمية قضية الإمامة من أن كل كتب الفقه وعلم الكلام لا تخلو منها، ولم تختلف بشأنها جميع فرق الأمة ما عدا فرقة "النجدات " البائدة من الخوارج. وقد كتب الإمام ابن حزم : "اتفق

جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة حاشا النجدات من الخوارج"[1].

وإذا كان هناك من خلاف في هذا الشأن فهو لا يعدو أن أهل السنة والجماعة قد اعتبروا الإمامة واجبة سمعاً، أما بعض الفرق كالزيدية والمعتزلة فقد اعتبروها واجبة عقلاً.

إن قضية إقامة الإمامة لا تنطبق إلا على مجتمع مسلم تمكنه حالته الاجتماعية من إقامة تنظيم اجتماعي مستقل. إن المؤمنين المتفرقين المنتشرين لا يمكن اعتبارهم مسئولين عن إقامة اِلإمامة. وبعبارة أخرى، فإن هذا الحكم ليس مطلقاً، بل يعنى أنه يجب على كل مجتمع مسلم يتمتع بمركز اجتماعي حرّ أن ينظم مجتمعه على أسس الإسلام، وأن يقيم على رأسه أميراً سياسياً يشرف على تنفيذ أوامر الدين. ِإن الإمامة بداية للسيادة الإجتماعية لمجتمع المسلمين، ولا يمكن توقع وجودها الإ حيث تسمح الظروف بالسيادة الإسلامية. أما حيث لا وجود للإختيار الإجتماعي , فكيف لنا بالإمامة؟ وعلى أي أساس سنكلف مسلمي ذلك المجتمع فاقد القدرة والصلاحية بأن يقيموا لأنفسهم الإمامة؟!.

ويمكن أن يثار هنا سؤال : إذا لم نكن مجتمعاً حراً ... . فكيف لنا به ؟؟..

إن هذا السؤال نتاج فكر معوج ... إن هذا السؤال يثار حين نحصر هدف الدين في إقامة الدولة الإلهية.

---

[1] الملل والنحل: ص 72.

فإذا كان الهدف المقرر هو إقامة الدولة، فإن كل كفاح سيبدأ تلقائياً باعتبار التغيير السياسي هدفاً أساسياً, وجميع تدابير المكافحين لذلك الهدف ستكون موجهة نحو الهدف الأساسي "التغيير السياسي". ولكن الحقيقة أن قضية التغيير السياسي ليست هدفاً مطلوباً من المؤمن عليه أن يناضل من أجله، بل هي تأتي ضمن إطاعة الأحكام، حسب الظروف المحيطة بالمؤمن. فكما أن أحكام الزكاة لا تجعل الثراء هدفاً للمؤمن (لأن تلك الأحكام تخص الذين يمتلكون المال، والذين يستطيعون التصرف في أموالهم) كذلك تعنى الأحكام السياسية في الإسلام أنه حين يصبح المجتمع المسلم ذا اختيار في القضايا السياسية ينبغي له أن يستعمل اختياره بأسلوب معين يوافق المشيئة الإلهية . إن جميع أحكام الطاعة تحدد لنا الأسلوب الصحيح لمعالجة الاختيار. وللسبب نفسه لا تجب إطاعة هذا النوع من الأحكام الإ حين تصبح مطلوبة من المؤمن بالفعل وتصبح تحت دائرة تصرفه واختياره.

أما المطلوب في الأحوال العامة، فهو أن يسلك أهل الإيمان طرق العبادة والطاعة، ثم يبدءوا في الإنذار والتبشير، ويحاولوا هداية العباد الضالين إلى الحق. ولابد أن نستمر في أداء هـذه المهمة في كل الأحوال وبكل الأساليب الممكنة، حتى نلقى الرفيق الأعلى ونحن نجاهد في سبيل هذا الهدف، أو يخلق لنا ربنا الأحوال الملائمة فتقع الرقعة الأرضية، التي نجاهد فيها، تحت طاعتنا، فنقيم عليها نظام خلافة الله، وهذا هو السبب في أن القرآن الكريم

لم يجعل الخلافة والحكومة هدفاً للحركة الإسلامية، بل وعد المسلمين بها، وجعلها إنعاماً للمجاهدين.

هذه هي الحيثية القانونية لهذه الأحكام الخاصة بالطاعة .أما الحكومة والسلطة فليس الجانب الوحيد لأهميتها - للمؤمن- أنها تمكنه من تنفيذ قوانين الله، بل لابد منها أيضاً لأنها وسيلة التمكين في الأرض، وبها يتم تنفيذ المقتضيات غير السياسية الحيوية. وهى لذلك، ستظل رغبة محمودة لأهل الإيمان من غير المكلفين بتنفيذ الأحكام الاجتماعية، وقد اعتبرها ربهم الكريم: " وأخرى تحبونها "[1]. أما إذا كانت الأحوال مواتية فالجهاد للظفر بها هو عين المطلوب.

ثانياً: الشهادة

إن المقتضى الثاني من مقتضيات العبادة هو ما نسميه بالشهادة أو الدعوة إلى الإسلام، ومعناه أن تصل الدعوة إلى جميع عباد الله، حتى لا يزعم أحدهم يوم القيامة أن الدعوة لم تصل إليه , وذلك لأن العبد الذي لا تبلغه الدعوة لا يتحمل مسئولية ضلاله. فالمسلمون اليوم هم الذين تقع عليهم مسؤولية القيام بهذه الدعوة أو الشهادة "رسلاً مبشرين ومنذ رين لئلا يكون للناس على حجة بعد الرسل"[2].

[1] (الصف:13).
[2] (النساء:165) .

لقد ظن بعض الناس، في الأزمنة الحديثة، أن الدعوة تقتضي عرض الإسلام أمام العالم كأحسن وأكمل نظام للحياة. إن هذه الفكرة ليست خاطئة، في حقيقتها ولا أطالب بنبذها . إن الحكمة الكلامية قد تستدعي في بعض الأحايين أن نعرض الإسلام كأحسن وأكمل نظام للحياة. ولكن هذا العرض لن يتجاوز الضرورة الكلامية، أما إذا جعلنا كون الإسلام نظاماً جيداً هو الأساس الذي نزل من أجله الإسلام، فستفقد دعوتنا صدقها.

إننا لو عرضنا الإسلام كنظام حياة جيد , فسيظن الآخرون أن ديننا محاولة - كالمحاولات الأخرى - لحل مشكلات الإنسان. وبعبارة أخرى، أننا حين نطرح القضية على هذا الأساس، فنحن ننذر الآخرين بأنهم في حالة تركهم الإسلام سيتعرضون لمشكلات سياسية واقتصادية في هذه الدنيا، في حين أن القرآن يخبرنا أن الرسل قد نزلوا لإنذار الناس من عذاب الآخرة: " يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ، لينذر يوم التلاق "[1].

إن منتهى هذه الدعوة - بالنسبة للمدعو إليها - أن يقبل الدعوة ويصلح حياته في ضوئها، أما منتهاها بالنسبة إلى الداعي فهو أن يبلغ الآخرين رسالته بأقصى وأقوى ما لديه من أساليب الدعوة , حتى يبين للمدعوين أمر دعوته فلا يبقى لهم عذر من عدم وصول الدعوة إليهم. ولذلك كان مقياس إتمام الحجة للأنبياء: أن يبلغوا رسالتهم لشعوبهم أحسن بلاغ، ولم يكونوا مكلفين بشيء أكثر

---

[1] (غافر: 15)

من ذلك. إن جميع الأقوام التي يذكرها القرآن الكريم بأنها لم تؤمن برسالات أنبيائها وعصتهم فحق عليها العذاب، هي الأقوام التي أبلغها أنبياؤها الدعوة عن طريق الخطب والأحاديث، وليس أكثر من ذلك. وهذا هو السر في أن جميع الكلمات التي استخدمها القرآن الكريم للتعبير عن هذا المقتضى، هي كلمات تفيد معنى الإبلاغ والإعلام. وللتذليل على هذا سأنقل بعض الآيات التي وردت في هذا الصدد:

الصدع بالأمر: " فاصدع بما تؤمر" [1].

تبيين الذكر: " وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس "[2] .

إيذان الوحي: " فإن تولوا فقل: آذنتكم على سواء "[3].

إبلاغ الرسالة:"يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى، ونصحت لكم"[4].

قص الآيات: " يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي"[5].

قراءة القرآن:" وقرآن فرقناه لتقرأه على الناس على مكث"[6].

تلاوة الكتاب: " أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم"[7].

---

[1] (الحجر:94)
[2] (النحل:4)
[3] (الأنبياء:109)
[4] (الأعراف:79)
[5] (الأعراف:35)
[6] (الإسراء:106)
[7] (العنكبوت:51)

الإنذار والتبشير: "وما أرسلناك الإ كافة للناس بشيرا ونذيرا "[1].

نداء للإيمان: " ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان "[2].

الدعوة إلى الإسلام: " ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام "[3].

تبليغ ما أنزل الله: " يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك "[4].

"[4].

التذكير بأيام الله : " وذكرهم بأيام الله "[5].

إن الداعي يشرع في مهمته بهذه العقلية. أنه يبتغي إبلاغ دعوته إلي كل الناس، مستخدماً كل ما لديه من المحبة لهم والصدق. أما الأحداث الأخرى التي تقع بعد ذلك، خلال التبليغ أو بعده- فهي ليست من صميم عمل الداعي. فمن الممكن أن يحين أجل الداعي وهو لما يدعو قومه إلى الدين بعد ... ومن الممكن أن تقبل الشخصيات البارزة في محيط الداعي دعوة الدين فتنتشر فجأة في المنطقة كلها ... ومن الممكن أن يتصدى له الأعداء ويكيدوا لإنهاء دعوته بأنفسهم أو بالتواطؤ مع السلطة ... ومن الممكن أن يخلق الله ظروفاً تساعد الداعي أو أتباعه من بعده على الحصول على مقاليد السلطة ... ومن الممكن أن يكون الحصول على مقاليد

---

[1] (سبأ:28)

[2] (آل عمران: 193)

[3] (الصف:7)

[4] (المائدة:67)

[5] (إبراهيم:5)

السلطة عملاً سياسياً بحتاً يرجع إلى براعة القائمين بالدعوة في السياسة ... ومن الممكن على العكس من ذلك، أن تكون دعوتهم قد أثرت في قطاعات شاسعة من السكان فيظهر مجتمع منظم.

إن كل هذه الصور ممكنة الحدوث خلال أعمال الدعوة، ولها أمثلة كثيرة في تاريخ الدعوة الإسلامية. إن صورة ما من هذه الصور ليست مقياساً ثابتاً للدعوة، حتى يمكننا قياس نجاح الداعي بمقارنتها. إن الشرط الوحيد للدعوة أن يقوم الداعي بإبلاغ رسالته " بقول بليغ "، وبكامل النصح، وأن يستمر في بلاغه مهما صادفه من عقبات. كل ما يحدث بعد هذا هو من النتائج الدنيوية للدعوة وتعد من وقائع تاريخ الدعوة. فالمطلوب من الداعي أن يبلغ رسالته بأقصى ما لديه من القدرة، ويواصل بلاغه حتى الموت أو حتى يتيقن أنه قد أصبح عاجزاً عن الاستمرار .

أما الوقائع الأخرى التي تحدث خلال دعوته فهي أحداث تقع من قبل المدعوين إلى الدعوة وليس من قبل الداعي نفسه. أنه لا وجود لفهرس كامل لأعمال الداعي، كما أن الفرق بين نوعيه أعمال الدعوة لا يقوم دليلاً على كون عمل أحد الدعاة ناقصاً أو كاملاً.

إن الأمر الآخر الذي يجب ملاحظته، هو أن الدعوة بين غير المسلمين لا تستوجب وضع الدين كله أمامهم مرة واحدة بصورة غير منقوصة. بل يجب أن نضع أمامهم الحقائق الأساسية أولاً، كحقائق الله والرسالة والآخرة، وبعد اقتناعهم بهذه الحقائق الأساسية يمكنهم أن يقتنعوا بالأحكام والمقتضيات المتفرعة منها،

ولذلك ليس من الكياسة إعلامهم بالمقتضيات في أول الأمر قبل شرح الحقائق الأساسية لهم. لقد روى الشيخان أن الرسول الكريم حين أرسل معاذاً إلى اليمن أوصاه : " إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب فإذا جئتهم فأدعهم إلى أن يشهدوا أن لا اله الإ الله .."[1].

وهذا هو السر في أن جميع الأنبياء كانوا يأتون بالأحكام الأساسية، في بداية دعوتهم، وكانوا يستمرون في إبلاغها لأقوامهم لمدد طويلة. وكلما انفرجت الأحوال العملية بعد ذلك نزلت الأحكام الفرعية. ولم يحدث أبداً أن بُعث نبي ومعه نظام اجتماعي سياسي كامل حتى يضعه أمام شعبه ويطالبهم بإقامة الدولة الإلهية من فورهم , لتنفيذ جميع أحكام الدين مرة واحدة.

ثالثاً: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

إن المقتضى الثالث للدين يظهر بالنسبة إلى جماعة المؤمنين أنفسهم. إن الله يحب أن تنشأ بين المسلمين روح النصح. فلا يعيش المؤمن لصلاح ذاته وحدها ، بل يجب أن يسعى لصلاح وهداية إخوانه المؤمنين الذين يعيش بينهم. إن روح العبودية تحتم على عباد الله أن يتجمعوا في وحدة قوية ، وأن يجاهدوا لإصلاح وترقية أنفسهم، كالحرفيين الذين ينشئون لأنفسهم نقابة لحماية مهنتهم ومصالحهم.

---

[1] البخاري: كتاب المغازي, باب " بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن" , 206/5 ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله ، 37/1

ولهذا المقتضى قسمان: فردى واجتماعي.

إن المطلوب من الجانب الفردي لهذا المقتضى أن يجاهد كل مسلم حسب مقدرته وكفاءته لإصلاح وحماية اخوته الآخرين، وهذا ما قصده النبي الكريم حين قال: " الدين النصيحة "[1] .

فالدين يقتضي أن يكون كل مسلم ناصحاً لأخيه. يقول الصحابي جرير بن عبد الله رضى الله عنه :" بايعت رسول الله على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم "[2].

ويسمى هذا الجانب بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفيه يقول الإمام النووي: " قد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الكتاب والسنّة وإجماع الأمة، وهو أيضاً من النصيحة التي هي من الدين "[3] . وهذا هو العمل الذي وصفه الله بـ " وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر "[4].

لقد أوضح الله بهذا المصطلح جانبين هامين من نصح المؤمن لأخيه. فيجب أولاً أن نرغب غير المؤمنين فيما يبتغيه الله من عباده، وثانياً يجب أن نقف مع الذين يدخلون دين الله في وجه الصعوبات التي يواجهونها بعد الانضمام إلى صفوف المؤمنين. وقد شرح أحد المفسرين هذا المقتضى على النحو التالي:

---

[1] مسلم: كتاب الإيمان, باب " بيان أنه لا يدخل الجنة الإ المؤمنون " , 53/1.

[2] البخاري: كتاب الإيمان, باب " قول النبي- صلى الله عليه وسلم – الدين النصيحة ", 22/1

[3] الطبعة الهندية: ج1, ص15.

[4] (العصر:3)

" ...(وتواصوا بالحق) بيان لتكميلهم لغيرهم، أي وصى بعضهم بعضا بالأمر الثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا زوال في الدارين لمحاسن آثاره، وهو الخير كله من الإيمان بالله عزّ وجلّ واتباع كتبه ورسله في كل عقد وعمل. (وتواصوا بالصبر) أي عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحكم الحيلة البشرية وعلى الطاعات التي يشق عليها أداؤها، أو على ما يبلو الله عزّ وجلّ به عباده " .

ثم يضيف شارحاً حكمة التواصي بالحق وبالصبر:

" ... لأن الأول عبارة عن رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضى به الله تعالى، والثاني عن رتبة العبودية التي هي الرضا بما فعل الله تعالى "[1].

أما الجانب الاجتماعي لهذا المقتضى فتنفيذه رهين بالأحوال الاجتماعية للأمة. فإذا كانت الأمة تتمتع بالحرية والاختيار وجب عليها أن تنتخب ممثلين عنها وتنيط بهم مهمة تنفيذ الأحكام. هذا هو المقتضى الذي اتبعه موسى- عليه السلام- في صحراء سيناء، حين قسم بني إسرائيل إلى اثنتي عشرة قبيلة أقام عليها اثني عشر نقيباً. أما إذا كانت الأمة لا تتمتع بحرية التصرف الكاملة فيجب عليها أن تقيم على نفسها معلمين ومبلغين , مثلما حدث مع مسلمي يثرب قبل الهجرة. فقد حضر ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من أهالي المدينة بيعة العقبة الثانية , واسلموا على يدي النبي الكريم فأمرهم باختيار اثني عشر نقيباً ففعلوا, وكانوا ثلاثة من الأوس

[1] أبوالسعود: ج5 , ص283 . ويراجع كذلك تفسير الألوسي ج3 ص 229.

وتسعة من الخزرج ثم خاطبهم النبي قائلاً: " أنتم كفلاء على قومكم "[1]. وهكذا كانت إدارة جعفر الطيار الذي كان أميرا المهاجرين إلى الحبشة[2] . وهكذا، كان المسلمون كلما خرجوا من دار الإسلام، يحاولون أن يقيموا لأنفسهم نظاماً ذاتياً، لتنظيم أنفسهم وأداء واجباتهم الشرعية تحت رئاسة أمير.

رابعاً- نصرة الدين:

إن المقتضى الأخير الذي ينشأ عن العلاقة بين العبد وربه, هو ما يمكن تسميته بـ " نصرة الدين ". إن نصرة الدين هي محاولة إحياء أو إبراز قيم أو قضايا إسلامية تتعرض للإنهيار أو الإختفاء أو لمعاول الهدم، وهى ما سمته الشريعة بـ " إعلاء كلمة الله ". أنه عمل متعدد النواحي وليس له من وضع محدد. إن من نصرة الدين أن تبذل النفس والنفيس في سبيل الله كلما تعرض دينه لمكروه ما، وكلما كان في حاجة إلى جهد بشري لإحيائه أو حفظه أو تجديده. إن من أسمى المشاعر الإنسانية ألا يدع الرجل سوءاً يلحق بأقرب أقربائه وأعزّ أحبائه , وأن يحاول درء ذلك السوء أو يتحمله بنفسه.

عندما تآمر عرب الجزيرة على إنهاء دعوة الرسول فوقف أصحابه الأكرمون لمواجهة تلك المؤامرة، كان ذلك أول وأسمى أمثلة نصرة هذا الدين ... وحين جاهد الخليفة الراشد عمر بن العزيز ضد الفساد

---

[1] الزرقاني ج 1 ص 382.

[2] البداية والنهاية:ج3, ص162.

الذي تفشى في أركان الدولة الإسلامية جهاداً - حتى أشربته الأسرة الحاكمة كأس السم - كان جهاده من نصرة الدين ... وحين خلقت الثروة والسلطة الفساد والترف في الدولة الإسلامية في القرن الثاني فتضعضع الإيمان واضمحلت العلاقة بالله , حاول الحسن البصري- وهو صورة الحزن والفقر- إحياء جسد الأمة الميت، فكان ذلك من نصرة الدين ... وحين جرف تيار الفلسفة اليونانية بعقائد المجتمع المسلم, وتمخض عن فتنة " خلق القرآن" انبرى الإمام أحمد بن حنبل- واضعاً حياته على كفه- يجاهد للدين الحق , فكان ذلك من نصرة الدين ... وفى القرن السادس حين بدأت الدول الأوربية حملاتها الصليبية على دول الإسلام وتوغلت فيها " كما يتوغل الآسفين في الخشب المتآكل " (على حد تعبير المؤرخ الإنجليزي ستانلي لين بول) ، وقف صلاح الدين بعظيم جرأته وعزيمته الإيمانية, فطهر دار الإسلام من جور واحتلال الأقوام البيض، كان ذلك من نصرة الدين ... وهكذا وقف كثيرون، وفى أحوال وظروف وقرون مختلفة، يجاهدون في سبيل الدين وإصلاح الأمة، بالأسلوب المتاح لهم، ومن هؤلاء: الإمام أبو الحسن الأشعري، الإمام الغزالي، الشيخ عبد القادر الجيلاني، العلامة ابن الجوزي , شيخ الإسلام عزالدين بن عبد السلام، ابن تيمية، الشيخ أحمد السرهندي، الشاه ولى الله، السيد احمد البريلوى، وآخرون كثيرون من العلماء الصالحين من ذوى العزيمة أثابهم الله خير ثواب. لقد وقف

هؤلاء لصلاح الأمة وبذلوا أقصى جهودهم لذلك الهدف. انهم كلهم ناصرو دين الله ومساعدوه. إن لهم درجة عند الله عظيمة.

إن الأحوال هي التي تحدد نوع النصرة الذي يحتاج إليه دين الله في وقت من الأوقات. وكذلك سوف تحدد ظروف الناصرين وقوتهم نوعية النصرة التي يمكنهم تقديمها لدين الله. إن الفرد غير مطالب بتقديم مالا يمكنه تقديمه. إن الذي يملك لسانه وعلمه، سينصر دين الله بلسانه وعلمه، والذي لديه القوة ووسائل التأثير الخارجية سيستعمل قوته لنصرة دين الله . ولتوضيح هذه النقلة، سأختم هذا الفصل بالاقتباس التالي من شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام (578- 660 هـ) : " قد أمرنا الله بالجهاد في نصرة دينه، الإ أن سلاح العالم علمه ولسانه، كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه، فكما لا يجوز للملوك إغماد سيوفهم عن الملحدين والمشركين، لا يجوز للعلماء إغماد ألسنتهم عن الزائغين والمبتدعين"[1].

[1] طبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي، ج5 ، ص 90.

الفصل السادس

الدين أصول وفروع

إن الله تعالى يأمرنا بأن نحاول فهم التعاليم التي نزل بها الأنبياء وأن نتبعها:

" لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " . (الأحزاب:21)

" فبهداهم اقتده ". (الأنعام:90)

ولكننا حين ندرس تاريخ الرسل لتعيين عناصر الدين، تعترضنا مشكلة كبرى، وهى إن حياة الرسل وتعاليمهم ليست علماً على مجموعة واحدة معينة.

إن التعاليم السماوية لم تنزل على الرسل مرة واحدة، بل نزلت عليهم بالتدريج حسب أحوال المسلمين. وعلى هذا الأساس تنقسم حياة الرسول الكريم إلى حقبتين هامتين: عصر ما قبل الهجرة، وعصر ما بعد الهجرة.

إن الوحي الذي نزل على الرسول قبل الهجرة كان يشمل التعاليم الأساسية للدين، وقد ظل مثل هذا الوحي ينزل عليه أكثر من عشر سنوات وكان المطلوب من النبي الكريم خلال هذه المدة أن يتبع تعاليم الوحي وأن يدعو الناس إليها، ويعلّمها لأصحابه. وعندما هاجر النبي الكريم إلى المدينة المنورة وحصل المسلمون على "التمكين" ، وحينئذ، فقط ، بدأت التعاليم السياسية والاجتماعية تنزل عليه. ويتضح من هذا أن فحوى الدين ومقتضاه قد

اختلف في المدينة عنه بمكة، حين كان المسلمون لا يزالون ضعفاء.

أن هذه الحقيقة تصبح اكثر إثارة لإمعان النظر فيها حين ندرس تاريخ الأنبياء الآخرين ، فنجد أن هذه النوعية المرحلية للوحي قد وُجدت عند جميع الأنبياء. وزد على ذلك أن نصيب كثير من الأنبياء من الوحي اقتصر على تعاليم المرحلة التي سبقت الهجرة النبوية. إن الأنبياء الكرام الذين عاشوا المرحلة الأولى من الوحي، فحسب، لم تنزل عليهم الأحكام التي تنفذ بعد التمكين والحصول على السلطة. أما الأنبياء الذين عاشوا المرحلة الثانية أيضاً، فقد نزلت عليهم التعاليم السياسية والإجتماعية التي تنفذ بعد حصول التمكين في الأرض.

هذا هو الفرق الذي ينشأ عن الظروف الخاصة التي يواجهها نبي من الأنبياء. وهناك فرق أيضاً في تعاليم المرحلة الثانية، وهو ينشأ عن الظروف السياسية والإجتماعية الخاصة التي يواجهها نبي من الأنبياء، والتي قد تتطلب تغييراً ما في تعاليم المرحلة الثانية.

أما تعاليم المرحلة الأولى - الأساسية - فهي كلها واحدة لدى جميع الأنبياء لا تختلف باختلاف الظروف، وقد نزلت على جميع الأنبياء بأسلوب واحد ، لا خلاف بين تعاليم الأنبياء الإ في قضايا المرحلة الثانية، وهى الخاصة بالشئون الإجتماعية والسياسية وبعبارة أخرى يصح لنا القول: " اتبعوا تعاليم الأنبياء " إذا كنا نقصد بذلك تعاليم المرحلة الأولى الموحى بها إليهم، أما إذا كنا نقصد بذلك تعاليم المرحلة الثانية، أيضاً، من الوحي، فذلك أمر لا يجوز، لأن

التعاليم السياسية والإجتماعية للأنبياء اختلفت من عصر إلى عصر ومن مجتمع إلى مجتمع . ولا يعنى هذا البحث أننا نجهل اليوم الشريعة المطلوب منا تنفيذها . لقد أثرنا هذه القضية لإيضاح حكمة التعاليم النبوية , وليس للبحث عن مشيئة الله اليوم. لأنه من المعلوم أن شريعة رسول الإسلام قد نسخت جميع الشرائع السابقة . ومثال ذلك أنه لا يجوز لوصى أحد المسلمين المتوفين أن يدّعي أنه لن يقسم الميراث على الورثة، لعدم وجود قانون سماوي واحد للوراثة. أنه يجب عليه تقسيم الميراث في ضوء شريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

مع الإتفاق الكامل مع المبدأ الآنف الذكر يثور هنا السؤال الآتي: هل نحن مكلفون بأحكام الشريعة طبقاً لمراحل نزولها عند ظهور الدعوة ؟.. وبكلمة أخرى: هل نحن مكلفون بها كتكليف أتباع الأنبياء بها (الذين كُلفوا بنوع من الأحكام، ثم كُلفوا بالباقي) , أم أن الواقع قد تغير بنزول القرآن الكريم، ولم نعدّ مكلفين بالأحكام طبقاً لمراحل نزولها، بل نحن مكلفون بجميع الأحكام مرة واحدة، وواجبنا تجاه هذه الأحكام أن نجاهد لتنفيذها كاملة فور إيماننا بها.

إن هذين السؤالين يمثلان منهجين مختلفين لدراسة الدين .

إن المنهج الأول يرى أنه يمكن فهرسة التعاليم النبوية تحت بابين عامين، " أصل وشرح له"، بينما يقسم أصحاب المنهج - هذه التعاليم إلى "بدء وتكميل له "..

إن المنهج الثاني الذي يعتبر أن النسبة الصحيحة بين الأحكام

الدينية هي نسبة البداية والتكميل لها، إنما يجعل النسبة كالتي توجد بين الشتلة (الشجيرة) والشجرة. فالشتلة هي الصورة الأولية البدائية للشجرة الكاملة، والشتلة لا تكتمل دون الوصول إلى كمالها في ثوب الشجرة. أما الشتلة التي لم ترق إلى صورة الشجرة فستظل منقوصة غير كاملة، دون التي انتهت إلى الشجرة فبلغت الكمال.

أن استدلال المنهج الثاني صحيح فيما يتعلق بمرحلة تنزيل الأحكام على الأنبياء، فقد وجد فيها البدء والتكميل. ولكن هذا الاستدلال لا يمكن قبوله لو أريد به شرح المطلوب من عباد الله , ومرده إلى أسباب عديدة:

أولاً : إن القول بالبدء ثم التكميل في الأحكام، يعنى أننا نعتبر دين بعض الأنبياء ناقصاً، ودين البعض الآخر منهم كاملاً، بالرغم من المبدأ الإلهي الثابت : " لا نفرق بين أحد من رسله " .(البقرة:285)

وبالرغم من أن الله تعالى يعتبر جميع الأنبياء مهديين على مستوى واحد : " كلاًّ هدينا ونوحا هدينا " . (الأنعام:84)

ثانياً: يعني هذا المنهج أننا - معشر المسلمين بصفتنا حملة الأمانة اليوم - نوجد في مركز لم يتمتع به أحد في الأزمنة الغابرة حتى الأنبياء أنفسهم. فقد كان الأنبياء ناقصين - في ضوء هذا المنهج - حيث كانوا يعرضون على أقوامهم أدياناً ناقصة طيلة دعوتهم ، ومن حظي منهم بالدين الكامل في حياته لم يحصل عليه الإلا في أواخر أيامه. وبإعتبار هذا المنهج ، تكون حياة معظم الأنبياء (

وأكبر أجزاء حياة البقية الباقية منهم أيضاً): ناقصة، بينما نحن نزعم التمتع بالدين الكامل من أول يوم لبداية الدعوة.

ثالثاً: إن القول بهذه النسبة بين أحكام الدين يقتضي منا - مهما كانت ظروفنا الإجتماعية وحيثما كنا - أن نبدأ من فورنا الجهاد لأجل تنفيذ كل أجزاء الدين المنزلة .. ناهيك أنه لا القرآن ولا السنّة يأمرنا بمثل هذا الجهاد، ولن يكون عصر الإسلام الأول نموذجاً مناسباً لهذا المنهج.

وفي ضوء هذه الحقائق نصل إلى أن القول بأن النسبة بين أحكام الإسلام هي نسبة " الأصل والشرح للأصل " : هو التفسير الصحيح لهذه القضية.

ويمكننا أن نفهم هذه الفضية بوضوح في ضوء مثال الروح والجسد. إن الروح وجود كامل، بل هو الأصل في الوجود البشري. ولكن هذا الأصل لا يظهر في العالم المادي الإ متقمصاً صورة الجسد. إن عدم وجود الروح في جسد ما أو نقصان أجزائه في جسد آخر، لا ينفي الروح نفسها. أن أسباب النقصان تكمن في نقصان تربية صاحب الروح، فمن الممكن أن تكون الروح ناقصة وهى في جسد صحيح، بينما من الممكن أيضاً أن تبلغ الكمال وهى في جسد ناقص عاجز.

أننا لو سلّمنا بهذه النسبة بين نوعيتي الأحكام الدينية، سنفهم السرّ في نزول أحكام النوعية الأولى على جميع الأنبياء , في بداية الوحي، وكذلك نفهم السبب في اقتصار معظم الأنبياء على تعاليم

هذه المرحلة الأولى. فالمطلوب الأساسي هو هذه النوعية الأولى من أحكام الدين، أما الأجزاء الأخرى (النوعية الثانية) فمطلوبة بحسب الأحوال والظروف، وليس بصفة كلية مطلقة.

ثم إن تسليمنا بهذه النسبة بين نوعيتي أحكام الدين، يقضي على العقدة المستعصية التي بمقتضاها تجرأ بعضهم فاعتبروا بعض الأنبياء (ناقصين) لأنهم لم يبعثوا الإ مع أحكام (النوعية الأولى). أن جميع هؤلاء الأنبياء بعثوا بالأساس من الدين ودعوا شعوبهم إليه وقضوا أيامهم في ضوء مقتضياته.

ثم أن قبولنا بهذه النسبة بين أحكام الدين يزيل الفرق الذي ينشأ بين أتباع الدين الإسلامي وبين الأنبياء. أننا بقبولنا هذه النسبة نقبل تلقائياً أن بداية عملنا هي التمسك بأصل الدين، وهو ما فعله الأنبياء، ثم نصل إلى بقية أجزاء الدين، طبقاً للأحوال، كما فعل الأنبياء أيضاً حين أتيحت لهم الظروف الملائمة . وسأنقل هنا بعض ما كتبه الإمام الرازي في هذا الصدد مبيناً أن الفرق بين تعاليم الأنبياء هو في الأصول والفروع: " وردت آيات دالة على عدم التباين في طريقة الأنبياء والرسل، وآيات دالة على حصول التباين فيها .(أما النوع الأول) فقوله، (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً)[1] إلى قوله (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وقال (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) . (وأما النوع الثاني) فهو هذه الآية: (لكل جعلنا

---

[1] (الشورى:13)

منكم شرعة ومنهاجا)[1] ، وطريق الجمع أن نقول: النوع الأول من الآيات مصروف إلى ما يتعلق بأصول الدين، والنوع الثاني مصروف إلى ما يتعلق بفروع الدين"[2].

إن الأجزاء التي يعتبرها الإمام الرازي" فروعا " للدين، ليست مما يمكننا إهمالها ولا يمكن اعتبارها غير هامة في هيكل الدين . إن هذا الفرق ينشأ من ناحية النوعية وليس من ناحية التشريع .
ويتضح من هذا أن " أصول " الدين مطلوبة من كل مؤمن راشد، ولا يمكنه أن يستحق رضا الله دون اتباعها. أما الفروع ، فليست مطلوبة بصفة مطلقة، بل تفرضها الأحوال المحيطة بالمسلم، تماماً كما أصبحت مطلوبة من صاحب الوحي في أحوال معينة وليس قبلها.

إن هذا الفرق بين الأصل والفرع يقوم حين لا يكون الفرع مطلوباً بعد , أما حين يكون الفرع مطلوباً من المسلم فلا يكون هناك فرق من ناحية الأداء بين الأصل والفرع من الدين، أي أن كليهما يكون مطلوباً حينئذ بدرجة واحدة من الأهمية والشدة.

ويمكن أن يثار هنا سؤال آخر، وهو أنه إذا كانت النسبة بين الأحكام هي نسبة الأصل والشرح له، فما تفسير آية إكمال الدين من سورة المائدة ؟ .. لقد بحث المفسرون في هذه القضية ، ولكنهم لم يقبلوا في صدد تفسيرها فكرة البدء والتكميل للدين، لأنهم قد تنبهوا إلي أننا سنضطر عند قبول هذه الفكرة إلي القول

---

[1] (المائدة: 48)
[2] (التفسيرالكبير:ج/3-ص/608).

بأن الدين كان ناقصاً قبل نزول آية الإكمال. وسوف أنقل هنا، مرة أخرى، كلمات الإمام الرازي التي يمكن اعتبارها خلاصة بحث المفسرين في هذه القضية: " في الآية سؤال، وهو أن قوله: " اليوم أكملت لكم دينكم " يقتضي أن الدين كان ناقصاً قبل ذلك، وذلك يوجب أن الدين الذي كان صلى الله عليه وسلم مواظباً عليه أكثر عمره- كان ناقصاً، وأنه إنما وجد الدين الكامل في آخر عمره مدة قليلة، وأعلم أن المفسرين لأجل الاحتراز عن هذا الإشكال ذكروا وجوهاً :

الأول: أن المراد من قوله: أكملت لكم دينكم، هو إزالة الخوف عنهم وإظهار القدرة لهم على أعدائهم، وهذا كما يقول الملك عندما يستولي على عدوه ويقهره قهراً كلياً: اليوم كمل ملكنا. وهذا الجواب ضعيف، لأن ملك ذلك الملك كان قبل قهر العدو ناقصاً.

الثاني : أن المراد أني أكملت لكم ما تحتاجون إليه في تكاليفكم من تعليم الحلال والحرام، وهذا أيضاً ضعيف، لأنه لو لم يكمل لهم قبل هذا اليوم ما كانوا محتاجين إليه من الشرائع كان ذلك تأخير للبيان عن وقت الحاجة وأنه لا يجوز.

الثالث: وهو الذي ذكره القفال، وهو المختار، أن الدين ما كان ناقصاً البتة، بل كان أبداً كاملاً، يعني كانت الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كافية في ذلك الوقت، الإ أنه تعالى كان عالماً في أول وقت المبعث بأن ما هو كامل في هذا اليوم هو ليس بكامل في الغد ولا صلاح فيه، فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت وكان يزيد بعد

العدم، وأما في آخر زمان المبعث فأنزل الله شريعة كاملة، وحكم ببقائها إلى يوم القيامة، فالشرع أبداً كان كاملاً، الإ أن الأول كمال إلى زمان مخصوص والثاني كمال إلى يوم القيامة. فلأجل هذا المعنى قال: اليوم أكملت لكم دينكم "[1] . ويعني هذا أن ما يكون مطلوباً من مؤمن ما في ظرف من الظروف , هو الدين الكامل المطلوب منه، في ذلك الظرف.

أما الدين الكامل، والذي نزل نهائياً، فهو الذي يراعي أحكام جميع الأحوال الممكنة الحدوث بالنسبة للمؤمن، وتكون مطلوبة منه كلما كان في استطاعته تنفيذها. فإذا كان أحد المؤمنين كامل الإيمان والتقوى، فهو صاحب الدين الكامل .. أما إذا حدث ولم يكتمل لديه النصاب حتى يدفع الزكاة، ولم تحن الفرصة حتى يحضر في المحكمة ليدلي بالشهادة الصادقة، ولم تسمح له الظروف بتقسيم التركة، فان هذه الحالات لن تؤثر في كمال دينه، لأنه يؤمن بجميع الأحكام إيماناً صادقاً، وهو مستعد في قرارة قلبه لتنفيذها كاملاً، كلما خلق الله له ظروفاً تستدعي ذلك.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

[1] (التفسيرالكبير: ج /3 – ص 527- 528)

الفهرس